فَضيلَةٌ رائِعَةٌ في
مجمُوعَةٍ قَصَصيَّةٍ للأطْفالِ



تَحَمُّلُ المَسؤُولِيَّةِ

RESPONSIBILITY

ماري جوزيف



6 قصص شيقة



فَضِيْلَةٌ رَائِعَةٌ فِي
مَجْمُوْعَةٍ قَصَصِيَّةٍ لِلْأَطْفَالِ

تَحَمُّلُ المَسْؤُوْلِيَّةِ



صُنْدُوْقُ الكَنْزِ
تَتَعَلَّمُ مِنْ هَذِهِ القِصَّةِ أَنَّهُ لَابُدَّ لِلْأَبْنَاءِ مِنْ أَنْ يَتَحَمَّلُوْا مَسْؤُوْلِيَّةً تُجَاهَ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، مِثْلَمَا يَتَحَمَّلُ الآبَاءُ وَالأُمَّهَاتُ المَسْؤُوْلِيَّةَ تُجَاهَ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ.

سَيْفُ (ديموقليس)
تُعَلِّمُنَا هَذِهِ القِصَّةُ أَنَّ السَّعَادَةَ الَّتِي يَخْلُقُهَا المَنْصِبُ وَالسُّلْطَانُ لَا تَعْنِي التَّفَلُّتَ مِنَ المَسْؤُوْلِيَّةِ، فَالمَسْؤُوْلِيَّاتُ تَتَرَتَّبُ عَلَى الحُقُوْقِ الَّتِي نَتَمَتَّعُ بِهَا.

العِقْدُ
تَحْكِي لَنَا هَذِهِ القِصَّةُ حِكَايَةَ المَرْأَةِ الَّتِي أَضَاعَتِ العِقْدَ الَّذِي اسْتَعَارَتْهُ، فَدَفَعَهَا إِحْسَاسُهَا بِالمَسْؤُوْلِيَّةِ عَنْ ضَيَاعِهِ إِلَى فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ بِوُسْعِهَا أَنْ تَفْعَلَهُ لِاسْتِعَادَةِ العِقْدِ الضَّائِعِ.

حِكَايَةُ (شرافان)
تَحْكِي لَنَا هَذِهِ القِصَّةُ المُؤَثِّرَةُ حِكَايَةَ فَتىً مُطِيْعٍ، اِسْتَطَاعَ أَنْ يُؤَدِّيَ وَاجِبَاتِهِ، وَيَتَحَمَّلَ مَسْؤُوْلِيَّاتِهِ تُجَاهَ وَالِدَيْهِ، دُوْنَ أَنْ يُقَلِّلَ ذَلِكَ مِنْ مِقْدَارِ سَعَادَتِهِ.

جَمْعِيَّةُ الصَّلِيْبِ الأَحْمَرِ
تَتَحَدَّثُ هَذِهِ القِصَّةُ عَنِ الشَّابِّ الثَّرِيِّ الَّذِي دَفَعَهُ إِحْسَاسُهُ بِالمَسْؤُوْلِيَّةِ إِلَى هِجْرَةِ حَيَاةِ الرَّاحَةِ وَالرَّفَاهِيَةِ، وَأَنْ يَنْذُرَ نَفْسَهُ لِلْمُسَاعَدَةِ فِي تَخْفِيْفِ مُعَانَاةِ الجَرْحَى مِنَ الجُنُوْدِ.

البَحْثُ عَنِ الثَّرْوَةِ
تُحَدِّثُنَا هَذِهِ القِصَّةُ عَنْ رَجُلٍ دَفَعَهُ إِحْسَاسُهُ بِالمَسْؤُوْلِيَّةِ تُجَاهَ المَظْلُوْمِيْنَ وَالفُقَرَاءِ إِلَى التَّنَازُلِ عَنِ البِضَاعَةِ الثَّمِيْنَةِ الَّتِي كَانَ يَحْمِلُهَا، مُقَابِلَ تَحْرِيْرِ الأَشْخَاصِ الَّذِيْنَ تَعَرَّضُوْا لِلظُّلْمِ.

صُنْدُوقُ الكَنْز

ارْتَجَفَتْ يَدَا (يُوسُفَ) وَهُوَ يُحَاوِلُ إِدْخَالَ الخَيْطِ في الإِبْرَةِ، فَقَدْ بَدَأَ بَصَرُهُ يَضْعُفُ مَعَ تَقَدُّمِهِ في السِّنِّ، ثُمَّ تَمَكَّنَ بَعْدَ مُحَاوَلَاتٍ مُتَكَرِّرَةٍ مِنْ إِدْخَالِ الخَيْطِ في الإِبْرَةِ، لَكِنَّهُ كَانَ مُتَيَقِّناً مِنْ أَنَّ اليَوْمَ الَّذِي لَنْ يَتَمَكَّنَ فِيْهِ مِنْ فِعْلِ ذَلِكَ آتٍ لَا مُحَالَةَ، فَلَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ مَنْ يُسَاعِدُهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ زَوْجَهُ تُوُفِّيَتْ مُنْذُ بِضْعِ سَنَوَاتٍ، وَتَفَرَّغَ أَوْلَادُهُ الثَّلَاثَةُ لِحَيَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ بَعْدَ الزَّوَاجِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ أَيُّ مُتَّسَعٍ مِنَ الوَقْتِ لِلْاهْتِمَامِ بِهِ، فَكَانُوْا يَزُوْرُوْنَهُ مَرَّةً في الأُسْبُوْعِ فَقَطْ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْفَعُهُمْ إِلَى تِلْكَ الزِّيَارَةِ شَوْقُهُمْ إِلَى رُؤْيَةِ أَبِيْهِمْ وَمُجَالَسَتِهِ، بَلْ كَانَتْ عَادَةً فَحَسْبُ، وَمَعَ تَقَدُّمِ (يُوْسُفَ) في السِّنِّ، وَتَطَوُّرِ حَالَةِ الوَهْنِ وَالضَّعْفِ الَّتِي أَصَابَتْ جَسَدَهُ؛ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الزِّيَارَاتُ نَادِرَةً وَقَلِيْلَةً جِدّاً، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوْا يَتَهَرَّبُوْنَ مِنْ مَسْؤُوْلِيَّتِهِمْ تُجَاهَ وَالِدِهِمُ المُسِنِّ، وَأَصْبَحَ (يُوْسُفُ) يَشْعُرُ أَنَّهُ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى عِبْءٍ ثَقِيْلٍ يُرْهِقُ كَاهِلَ أَبْنَائِهِ.

لَكِنَّهُ كَانَ يَقْضِي وَقْتَهُ بِالتَّفْكِيْرِ حَزِيْناً، وَيَقُوْلُ في نَفْسِهِ: "لَمْ أَشْعُرْ بِحَيَاتِي أَنَّ أَوْلَادِي كَانُوْا عِبْئاً عَلَيَّ حِيْنَمَا كَانُوْا صِغَاراً".

وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يَغْمَضْ لِـ(يُوْسُفَ) جَفْنٌ؛ لِأَنَّ القَلَقَ كَانَ يُسَاوِرُهُ حَوْلَ مَصِيْرِهِ في هَذِهِ الحَيَاةِ، إِذْ كَانَ يَشْعُرُ أَنَّهُ شَخْصٌ غَيْرُ مَرْغُوْبٍ فِيْهِ، وَلَا أَحَدَ يُحِبُّهُ.





وَبَيْنَما كانَتْ تِلْكَ الأَفْكارُ السَّوْداوِيَّةُ تَدُوْرُ في خَلَدِ (يُوْسُفَ)، خَطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ يُمْكِنُهُ مِنْ خِلالِها أَنْ يُلَقِّنَ أَبْناءَهُ دَرْساً لا يَنْسَوْنَهُ أَبَداً، حَتَّى لا يَتَخَلَّوْا عَنْ مَسْؤُوْلِيّاتِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى.

اِشْتَرَى (يُوْسُفُ) صُنْدُوْقاً خَشَبِيّاً كَبِيْراً، وَاسْتَطاعَ في أَيّامٍ قَلِيْلَةٍ مَلْءَ ذَلِكَ الصُّنْدُوْقِ بِالحِجارَةِ، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى حافَتِهِ، ثُمَّ أَقْفَلَهُ بِقُفْلٍ مُحْكَمٍ، وَوَضَعَهُ في إِحْدَى زَوايا البَيْتِ.

وَعِنْدَما أَتَى أَوْلادُ (يُوْسُفَ) لِزِيارَتِهِ لاحَظُوْا وُجُوْدَ ذَلِكَ الصُّنْدُوْقِ، فَأَثارَ فُضُوْلَهُمْ، وَراحُوْا يَتَساءَلُوْنَ في سِرِّهِمْ ماذا يُمْكِنُ أَنْ يُوْجَدَ داخِلَ ذَلِكَ الصُّنْدُوْقِ؟

ثُمَّ سَأَلَ الابْنُ الأَكْبَرُ أَباهُ: "ماذا يُوْجَدُ في ذَلِكَ الصُّنْدُوْقِ يا أَبَتِ؟"

رَدَّ الأَبُ: "لا شَيْءَ يُذْكَرُ يا بُنَيَّ، فَقَدْ وَضَعْتُ فِيْهِ الأَشْياءَ الَّتِي كُنْتُ أَدَّخِرُها طِيْلَةَ السَّنَواتِ الماضِيَةِ".

عِنْدَها حاوَلَ الابْنُ الأَوْسَطُ أَنْ يُزَحْزِحَهُ بِقَدَمِهِ لِكَيْ يَتَبَيَّنَ مِقْدارَ ما فِيْهِ، فَوَجَدَ أَنَّهُ ثَقِيْلٌ جِدّاً، فَتَساءَلَ في سِرِّهِ: "أَيُمْكِنُ أَنْ يَحْتَوِيَ هَذا الصُّنْدُوْقُ عَلَى سَبائِكَ مِنَ الذَّهَبِ؟"

وَلَمّا غادَرَ الأَبْناءُ الثَّلاثَةُ مَنْزِلَ أَبِيْهِمْ، وَقَفَلُوْا عائِدِيْنَ إِلَى بُيُوْتِهِمْ؛ أَخَذُوْا يَتَحَدَّثُوْنَ في الطَّرِيْقِ عَنِ الصُّنْدُوْقِ الخَشَبِيِّ، وَيَتَباحَثُوْنَ أَمْرَهُ، وَرَجَّحُوْا أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَكُوْنَ مَمْلُوْءاً بِالذَّهَبِ.

وَهَذَا مَا أَثَارَ حَمَاسَهُمْ، وَسَعَادَتَهُمْ، وَدَفَعَهُمْ إِلَى تَغْيِيرِ سُلُوْكِهِمْ تُجَاهَ وَالِدِهِمْ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الثَّرْوَةَ كُلَّهَا سَتَنْتَقِلُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

قَرَّرَ أَبْنَاءُ (يُوْسُفَ) أَنْ يُغَيِّرُوْا أُسْلُوْبَهُمْ مَعَ أَبِيْهِمْ، وَأَنْ يُوْلُوْهُ الرِّعَايَةَ وَالاهْتِمَامَ، فَتَوَصَّلُوْا إِلَى اتِّفَاقٍ يُوْجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَقْضِيَ أُسْبُوْعاً عِنْدَ أَبِيْهِ، فَيَطْبُخُ لَهُ الطَّعَامَ، وَيَعْتَنِي بِأُمُوْرِهِ.

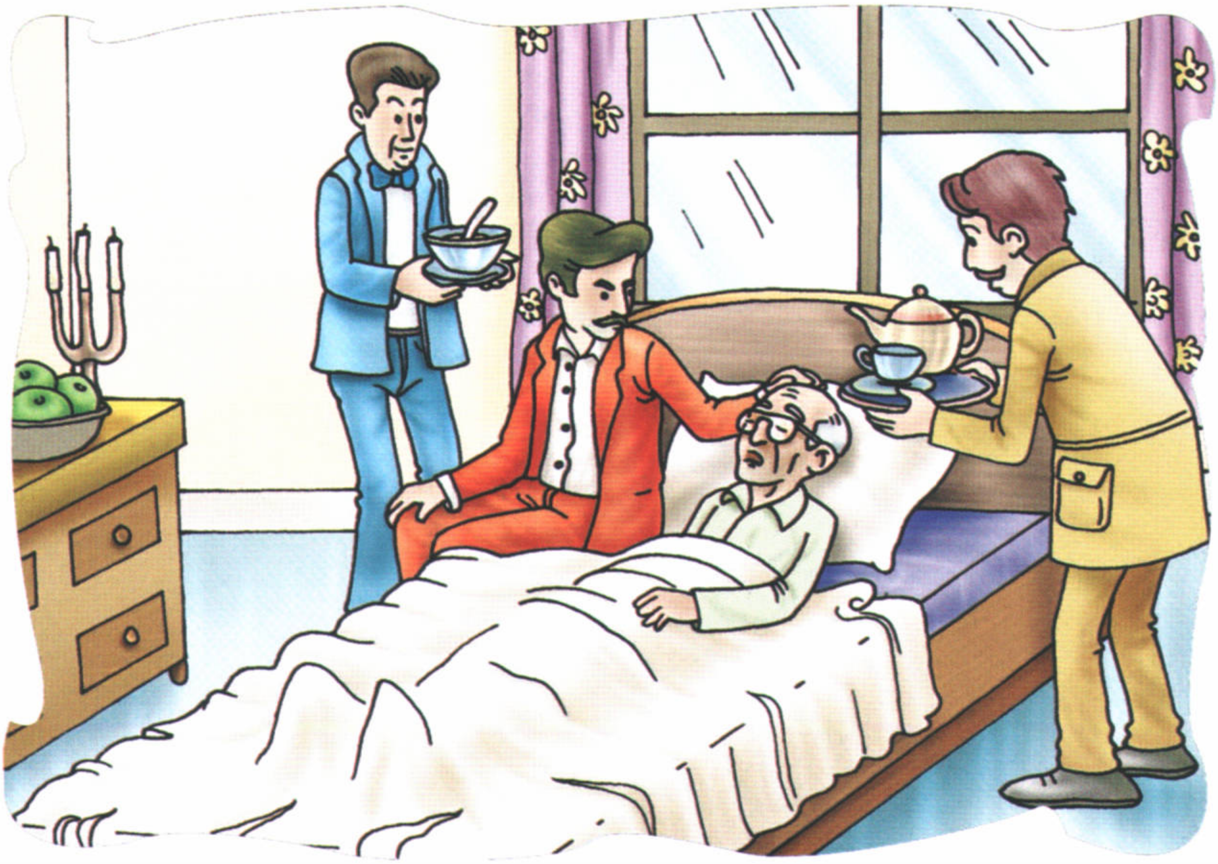
وَاسْتَمَرَّ بِهِمُ الحَالُ كَذَلِكَ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ، رَغْمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوْا بِالمُتْعَةِ عِنْدَ قَضَائِهِمْ أُسْبُوْعاً مَعَ أَبِيْهِمْ، بَلْ كَانُوْا يَشْعُرُوْنَ أَنَّ أَبَاهُمْ أَصْبَحَ عِبْئاً يُثْقِلُ كَوَاهِلَهُمْ، بَلْ إِنَّهُمْ لَمْ يَعُوْدُوْا يَحْتَمِلُوْنَ رُؤْيَتَهُ، أَوِ الجُلُوْسَ مَعَهُ، لَكِنَّهُمُ اسْتَمَرُّوْا عَلَى ذَلِكَ، وَتَابَعُوْا خُطَّتَهُمْ، لِأَنَّ مَا كَانَتْ تَتُوْقُ أَنْفُسُهُمْ إِلَيْهِ هُوَ الذَّهَبُ الَّذِي سَيَرِثُوْنَهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ.

وَفِي نِهَايَةِ الأَمْرِ اقْتَرَبَ اليَوْمُ الَّذِي كَانُوْا يَنْتَظِرُوْنَهُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ، فَقَدْ مَرِضَ (يُوْسُفُ)، وَأُنْهِكَ جَسَدُهُ الضَّعِيْفُ، ثُمَّ تُوُفِّيَ غَيْرَ مَأْسُوْفٍ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَوْلَادَهُ لَمْ يَكُوْنُوا يُكِنُّوْنَ لَهُ عَظِيْمَ مَحَبَّةٍ.

وَبَعْدَ وَفَاتِهِ أَخَذَ أَوْلَادُهُ يُفَتِّشُوْنَ المَنْزِلَ بَحْثاً عَنْ مِفْتَاحِ الصُّنْدُوْقِ لِيُخْرِجُوْا مِنْهُ الكَنْزَ الَّذِي كَانُوْا يَحْلُمُوْنَ بِهِ طِيْلَةَ تِلْكَ الفَتْرَةِ، وَهَذَا مَا جَعَلَهُمْ يَصْبِرُوْنَ عَلَى خِدْمَةِ أَبِيْهِمْ، وَأَخِيْراً، وَبَعْدَ بَحْثٍ طَوِيْلٍ، عَثَرُوْا عَلَى المِفْتَاحِ، فَفَتَحُوْا الخَزْنَةَ وَأَيْدِيْهِمْ تَرْتَجِفُ خَوْفاً وَلَهْفَةً لِرُؤْيَةِ الذَّهَبِ.

ثُمّ فَتَحُوْا الصُّنْدُوْقَ، وَهُنَا كَانَتِ المُفَاجَأَةُ الَّتِي أَدْهَشَتْهُمْ جَمِيْعاً، فَصَرَخَ الابْنُ الأَكْبَرُ قَائِلاً: "لَيْسَ فِيْهِ إِلَّا بَعْضُ الحِجَارَةِ، يَا لَهَا مِنْ لِعْبَةٍ قَذِرَةٍ احْتَالَ بِهَا أَبُوْنَا عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَوْقِفٌ قَاسٍ ذَلِكَ الَّذِي وَضَعَنَا فِيْهِ!".

فَرَدَّ الابْنُ الأَوْسَطُ: "قَاسٍ؟ مَنْ كَانَ بِرَأْيِكَ قَاسِياً؟ أَوَ تَقْصِدُ أَبَاكَ؟ لَا، لَمْ يَكُنْ أَبُوْكَ كَذَلِكَ، فَمَا الَّذِي





كَانَ بِوُسْعِهِ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي مِحْنَتِهِ؟ لَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّنَا لَمْ نَكُنْ لِنَعْتَنِيَ بِهِ لَوْلَا ذَلِكَ الأَمَلُ الَّذِي أَغْرَانَا بِالحُصُوْلِ عَلَى ثَرْوَةٍ".

وَعِنْدَهَا قَالَ الابْنُ الأَصْغَرُ وَالنَّدَمُ يَمْلأُ قَلْبَهُ: "يَا إِلَهِي! مَا الَّذِي ارْتَكَبْنَاهُ بِحَقِّ أَبِي؟!! لَكَمْ أَشْعُرُ بِالخَجَلِ مِنْ نَفْسِي، كَيْفَ كُنْتُ أُعَامِلُ أَبِي بِهَذِهِ الطَّرِيْقَةِ؟"

صَرَخَ الابْنُ الأَكْبَرُ: "كُفُّوْا عَنْ ذَلِكَ بِرَبِّكُمْ! مَازَالَ لَدَيَّ أَمَلٌ بِالحُصُوْلِ عَلَى الثَّرْوَةِ"، ثُمَّ أَخَذَ يُخْرِجُ مُحْتَوَيَاتِ الصُّنْدُوْقِ وَيَرْمِيْهَا عَلَى الأَرْضِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَجِدَ شَيْئاً ذَا قِيْمَةٍ فِي قَعْرِ الصُّنْدُوْقِ.

وَحِيْنَمَا فَرَغَ مِنْ إِخْرَاجِ مُحْتَوَيَاتِهِ كُلِّهَا، وَجَدُوْا عِبَارَةً مَكْتُوْبَةً فِي قَعْرِ الصُّنْدُوْقِ، وَهِيَ:

"إِنَّنَا نَتَحَمَّلُ المَسْؤُوْلِيَّةَ تُجَاهَ بَعْضِنَا"

فَعَلَى الأَوْلَادِ أَنْ يَتَحَمَّلُوْا مَسْؤُوْلِيَّاتِهِمْ وَوَاجِبَاتِهِمْ تُجَاهَ وَالِدِيْهِمْ، كَمَا أَنَّ الآبَاءَ وَالأُمَّهَاتِ يَتَحَمَّلُوْنَ مَسْؤُوْلِيَّاتِهِمْ تُجَاهَ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ.

لَقَدْ كَانَ صُنْدُوْقُ (يُوْسُفَ) صُنْدُوْقاً ثَمِيْناً حَقّاً؛ لِأَنَّهُ اسْتَطَاعَ مِنْ خِلَالِهِ أَنْ يُعَلِّمَ أَوْلَادَهُ دَرْساً لَنْ يَنْسَوْهُ طِيْلَةَ حَيَاتِهِمْ.

سَيفُ (ديموقليس)

كَانَتْ مَدِيْنَةُ (سيراكوزا) أَغْنَى مَدِيْنَةٍ في جَزِيْرَةِ (صِقِلِّيَةَ)، وَكَانَ يَحْكُمُهَا مَلِكٌ يُدْعَى (ديونيزيوس) يَعِيْشُ في قَصْرٍ فَخْمٍ، وَيَحْصُلُ عَلَى كُلِّ مَا يَرْغَبُ فِيْهِ، إِذْ كَانَ لَدَيْهِ خَدَمٌ كُثُرٌ مُهِمَّتُهُمْ تَلْبِيَةُ أَوَامِرِهِ وَرَغَبَاتِهِ، فَكَانَ يَكْفِيْهِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ رَغْبَتِهِ بِالحُصُوْلِ عَلَى شَيْءٍ مَا حَتَّى يَنْطَلِقَ الخَدَمُ لإِحْضَارِ مَا يُرِيْدُ، وَلَوِ اضْطَرَّهُمْ ذَلِكَ إِلَى الذَّهَابِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ.

كَانَ مُعْظَمُ النَّاسِ يَحْسُدُوْنَ المَلِكَ (ديونيزيوس) عَلَى مَا هُوَ فِيْهِ مِنْ عِزٍّ وَنَعِيْمٍ، وَيَقُوْلُوْنَ في سِرِّهِمْ: "يَالَهُ مِنْ رَجُلٍ مَحْظُوْظٍ"، وَمِنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ شَخْصٌ يُدْعَى (ديموقليس) الَّذِي كَانَ صَدِيْقاً لِلْمَلِكِ، وَقَدْ كَانَ يُحَدِّثُ (ديونيزيوس) يَوْمِيّاً عَنْ مَدَى السَّعَادَةِ الَّتِي يَعِيْشُهَا في قَصْرِهِ، وَيَسْتَمِرُّ في الحَدِيْثِ عَنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَضْجَرَ المَلِكُ مِنَ الاِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ.

وَفي أَحَدِ الأَيَّامِ سَأَلَ المَلِكُ (ديونيزيوس) صَدِيْقَهُ: "أَوَ تَظُنُّ أَنَّنِي كَذَلِكَ يَا صَدِيْقِي؟ هَلْ تَظُنُّ أَنَّنِي أَسْعَدُ إِنْسَانٍ في العَالَمِ يَا (ديموقليس)؟"

أَجَابَهُ (ديموقليس): "نَعَمْ، أَنْتَ كَذَلِكَ، فَمَالُكَ وَسُلْطَانُكَ لَابُدَّ أَنْ يَجْعَلَا حَيَاتَكَ خَالِيَةً مِنَ الهَمِّ وَالغَمِّ، وَمَا أَسْعَدَ الإِنْسَانَ الَّذِي لَيْسَ لَدَيْهِ مَا يُشْقِيْهِ في هَذِهِ الدُّنْيَا!"

عِنْدَهَا فَاجَأَهُ المَلِكُ بِقَوْلِهِ: "إِنْ كُنْتَ تَظُنُّ ذَلِكَ، فَمَا رَأْيُكَ أَنْ نَتَبَادَلَ الأَدْوَارَ يَا صَدِيْقِيَ العَزِيْزَ؟"

رَدَّ (ديموقليس): "لَا يُمْكِنُ لِذَلِكَ أَنْ يَتِمَّ يَا مَوْلَايَ، لَكِنْ إِنْ سَمَحْتَ لِي بِالحُصُوْلِ عَلَى ثَرْوَاتِكَ وَسُلْطَانِكَ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ فَقَطْ؛ فَسَأَكُوْنُ سَعِيْداً بِذَلِكَ"

فَقَالَ المَلِكُ: "وَهُوَ كَذَلِكَ، غَداً مَوْعِدُنَا إِذاً".

وَفي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي، أَمَرَ المَلِكُ خَدَمَهُ وَحَاشِيَتَهُ المَوْجُوْدَةَ في القَصْرِ بِالتَّعَامُلِ مَعَ (ديموقليس) عَلَى أَنَّهُ هُوَ المَلِكُ الحَقِيْقِيُّ.

وَلَكَمْ كَانَتْ سَعَادَةُ (ديموقليس) لَا تُوْصَفُ حِيْنَمَا بَدَأَتْ عَمَلِيَّةُ تَبَادُلِ الأَدْوَارِ، وَلَاسِيَّمَا حِيْنَمَا وَضَعَ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ، وَلَبِسَ ثِيَابَ المَلِكِ، وَأَخَذَوْا جَمِيْعاً يَتَرَقَّبُوْنَ حُضُوْرَهُ، عِنْدَهَا بَلَغَتْ سَعَادَتُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ، وَشَعَرَ أَنَّهُ أَسْعَدُ رَجُلٍ في العَالَمِ.

وَفي تِلْكَ الأَثْنَاءِ جَلَسَ المَلِكُ (ديونيزيوس) يُرَاقِبُ صَدِيْقَهُ وَهُوَ يَسْتَمْتِعُ بِقَضَاءِ يَوْمٍ كَامِلٍ مَلِكاً لِلْبِلَادِ، فَهَتَفَ صَاحِبُهُ قَائِلاً: "يَا لَهَا مِنْ مُتْعَةٍ لَا تُضَاهِيْهَا أَيُّ مُتْعَةٍ أُخْرَى!" ثُمَّ رَفَعَ كَأْساً مِنَ الشَّرَابِ، وَابْتَسَمَ لِصَدِيْقِهِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ عَلَى الطَّرَفِ المُقَابِلِ مِنَ الطَّاوِلَةِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ (ديموقليس) يَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهِ رَأَى سَيْفاً مُعَلَّقاً في السَّقْفِ تَحْمِلُهُ شَعْرَةٌ وَاحِدَةٌ كَانَتْ قَدْ أُخِذَتْ مِنْ ذَيْلِ أَحَدِ الخُيُوْلِ، وَكَانَ رَأْسُ السَّيْفِ يَكَادُ يُصِيْبُ وَجْهَهُ، فَجَمَدَتِ الاِبْتِسَامَةُ عَلَى شَفَتَيْهِ، وَشَحَبَ لَوْنُهُ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ، وَأَرَادَ القِيَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَالذَّهَابَ إِلَى مَخْدَعِ المَلِكِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَقْوَ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّ السَّيْفَ اللَّامِعَ كَانَ مُسَلَّطاً بَيْنَ عَيْنَيْهِ تَمَاماً!



فَسَأَلَهُ (ديونيزيوس): "مَا الخَطْبُ يَا صَدِيْقِي؟" لِمَاذَا شَحَبَ لَوْنُكَ هَكَذَا؟"

فَأَجَابَ (ديموقليس): "مَاذَا يَفْعَلُ هَذَا السَّيْفُ فَوْقَ رَأْسِي؟ إِذْ قَدْ تَنْقَطِعُ تِلْكَ الشَّعْرَةُ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ، وَعِنْدَهَا لَابُدَّ أَنْ يَهْوِيَ عَلَيَّ، أَلَمْ تُلَاحِظْ ذَلِكَ يَا مَوْلَايَ؟"

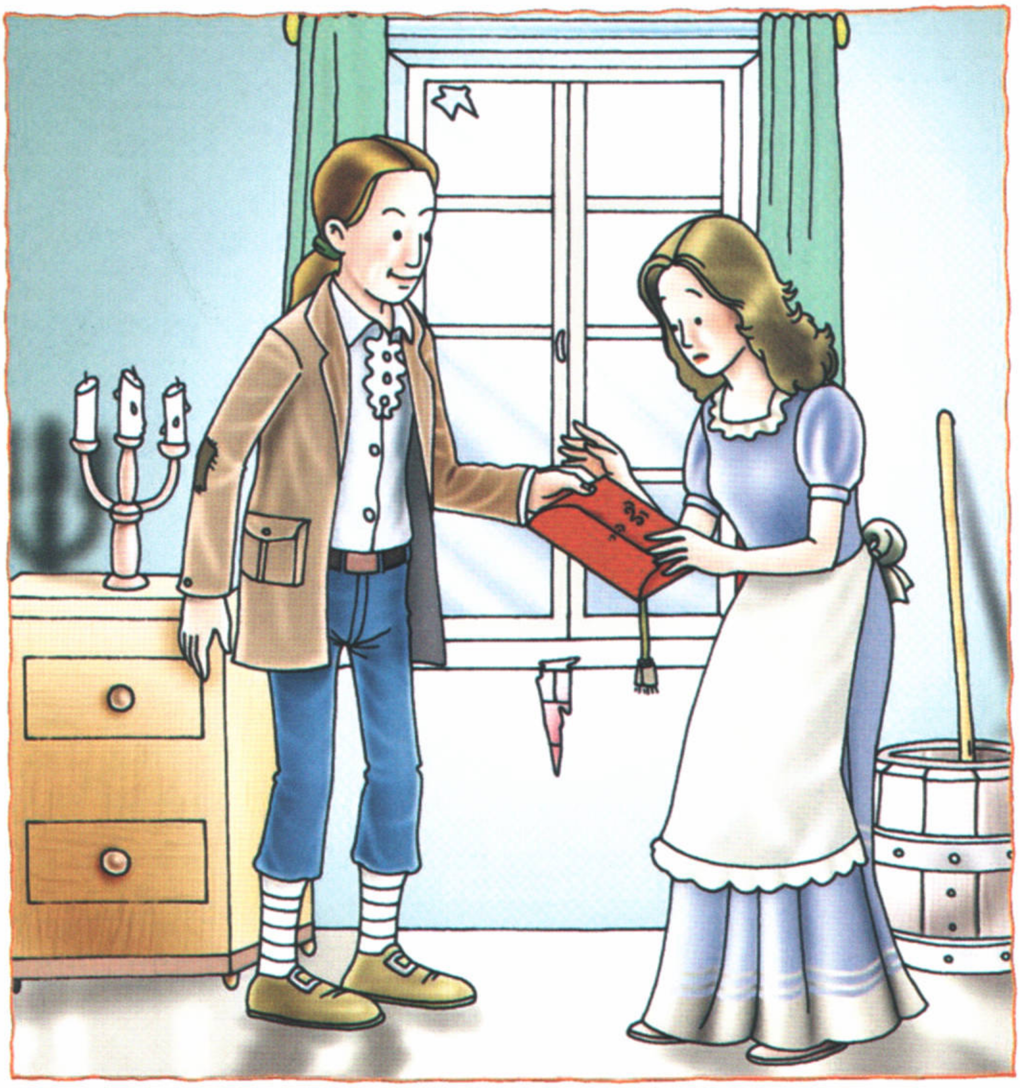
رَدَّ عَلَيْهِ (ديونيزيوس): "نَعَم، لَاحَظْتُ ذَلِكَ، بَلْ إِنَّنِي أُلَاحِظُ ذَلِكَ كُلَّ يَوْمٍ، لِأَنَّهُ مُسَلَّطٌ دَوْماً فَوْقَ رَأْسِي مُهَدِّداً حَيَاتِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَيُمْكِنُ لِأَيِّ شَخْصٍ أَنْ يَقْطَعَ تِلْكَ الشَّعْرَةَ، وَقَدْ يَكُوْنُ ذَلِكَ الشَّخْصُ أَحَدَ الَّذِيْنَ يَغَارُوْنَ مِنِّي لِأَنِّي المَلِكُ، أَوْ مَنْ يُرِيْدُ أَنْ يَهْزِمَنِي وَيَسْتَوْلِيَ عَلَى ثَرْوَاتِي وَمَمْلَكَتِي، أَوْ قَدْ يَكُوْنَ مِمَّنْ لَا يَرْغَبُوْنَ بِبَقَائِي فِي الحُكْمِ، هَلِ اسْتَوْعَبْتَ مَا قُلْتُهُ لَكَ يَا صَدِيْقِي؟ فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُصْبِحَ مَلِكاً فَعَلَيْكَ أَنْ تَقْبَلَ بِتَحَمُّلِ كُلِّ تِلْكَ المَخَاطِرِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الحُقُوْقَ تَأْتِي مَعَ الوَاجِبَاتِ وَالمَسْؤُوْلِيَّاتِ، لِأَنَّ الوَاجِبَ وَالحَقَّ مَا هُمَا إِلَّا وَجْهَانِ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ".

العِقْدُ

كَانَتْ (مَاجِدَةُ) فَتَاةً فِي غَايَةِ الجَمالِ وَالفِتْنَةِ، لَكِنَّ مَا كَانَ يَنْقُصُهَا هُوَ السَّعادَةُ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِالتَّعَاسَةِ عَلَى الدَّوامِ، فَقَدْ وُلِدَتْ لِأَبَوَيْنِ مُوظَّفَيْنِ، لِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا أَيُّ أَمَلٍ بِالزَّواجِ مِنْ شَخْصٍ ثَرِيٍّ، وَلِهَذَا فَقَدْ تَزَوَّجَتْ أَخِيْراً مِنْ مُوَظَّفٍ مُتَواضِعِ الشَّأْنِ يُدْعَى السَّيِّدَ (أُسَامَةَ)، فَلَازَمَتْهَا حَالَةُ الشَّقَاءِ وَالتَّعَاسَةِ بَعْدَ زَوَاجِهَا مِنْهُ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَكْرَهُ الفَقْرَ الَّذِي تَتَّسِمُ بِهَا الشُّقَّةُ الَّتِي تَسْكُنُهَا مَعَ زَوْجِهَا، فَجُدْرَانُهَا مُتَهَتِّكَةٌ، وَمَقَاعِدُهَا مُهْتَرِئَةٌ، وَكُلَّمَا جَلَسَتْ مَعَ زَوْجِهَا لِتَنَاوُلِ وَجْبَةٍ مُتَواضِعَةٍ عَلَى المَائِدَةِ المُسْتَدِيْرَةِ الَّتِي كَانَ يُغَطِّيْهَا مَفْرَشٌ وَاحِدٌ لَا يَتَغَيَّرُ؛ كَانَتْ (مَاجِدَةُ) تَحْلُمُ بِتَنَاوُلِ وَجْبَةٍ مُمَيَّزَةٍ فِي أَحَدِ المَطَاعِمِ الرَّاقِيَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ لَدَى (مَاجِدَةَ) أَثْوَابٌ أَوْ جَوَاهِرُ جَدِيْدَةٌ، رَغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّ أَنْ يَكُوْنَ لَدَيْهَا الكَثِيْرُ مِنْ تِلْكَ الأَشْيَاءِ.

وَلَكِنْ فِي أَحَدِ الأَيَّامِ، عَادَ زَوْجُهَا مَسَاءً مِنْ عَمَلِهِ وَالفَرَحُ بَادٍ عَلَى مُحَيَّاهُ، وَكَانَ يَحْمِلُ مُغَلَّفاً بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: "لَقَدْ جَلَبْتُ مَعِي مُفَاجَأَةً لَكِ". وَعِنْدَمَا فَتَحَتْ (مَاجِدَةُ) المُغَلَّفَ وَجَدَتْ دَاخِلَهُ دَعْوَةً



لحفْلَة يُقيمُهَا أَحدُ الوُزَرَاء، وَبدَلاً مِنْ أَنْ تَبْتهج لِدَعْوَتهَا لِتلْكَ الحفْلَة رَمَتْ بهَا جَانباً، وَصَاحَتْ بِزَوْجِهَا قَائلَةً: "كَيْفَ لِي أَنْ أَكُوْنَ سَعيْدَةً بِهَذِه الدَّعْوَة وَلَيْسَ لَدَيَّ مَا أَرْتَديْه لِحُضُوْرهَا؟"

فَأَجَابَهَا زَوْجُهَا: "وَلِمَ كُلُّ هَذَا يَا عَزيْزَتي؟ مَا رَأْيُك بِالثَّوْبِ الَّذي ارْتَدَيْته لِحُضُوْرِ العَرْضِ المَسْرَحِيِّ؟ إنَّهُ جَميْلٌ، وَيُنَاسبُك تماماً"، غَيْرَ أَنَّهُ سَرْعَانَ مَا لَزِمَ الصَّمْتَ حيْنَمَا شَاهَدَ دُمُوْعَهَا تَنْزَلقُ فَوْقَ خَدَّيْهَا.

ثُمَّ تَوَقَّفَتْ (مَاجدَةُ) عَنِ البُكَاء، وَشَعَرَتْ بِالنَّدَمِ لأَنَّهَا غَضبَتْ، وَفَقَدَتْ أَعْصَابَهَا وَهِيَ تَتَنَاقَشُ مَعَ زَوْجِهَا، الَّذي عَامَلَهَا بِكُلِّ لُطْفٍ وَمَوَدَّة، لِذَا قَرَّرَتْ أَخيْراً أَنْ تُسَيْطِرَ عَلَى انْفعَالاتهَا الغَاضبَة، فَأَرْدَفَتْ قَائلَةً: "منَ الأَفْضَلِ أَنْ تُسَلِّمَ بِطَاقَةَ الدَّعْوَة لأَحَد زُمَلائكَ في العَمَلِ".

رَدَّ زَوْجُهَا: "رُوَيْدَك يَا (مَاجدَةُ)! كَمْ سَيَكُوْنُ ثَمَنُ الثَّوْبِ الَّذي يُنَاسبُ حُضُوْرَ تِلْكَ الحَفَلاتِ بِرَأْيك؟"

فَأَجَابَتْهُ (مَاجدَةُ): "انْسَ أَمْرَ الثَّوْبِ يَا عَزيْزي؛ لأَنَّهُ سَيُكَلِّفُنَا مَا لَيْسَ بمَقْدُوْرنَا أَنْ نَدْفَعَهُ، إذْ يُمْكنُ أَنْ يَصلَ سعْرُهُ إلَى مَا يُقَاربُ أَرْبَعَ مئَة قطْعَة نَقْديَّة".



عنْدَ سَمَاعِ هَذَا الرَّقْمِ شَحَبَ لَوْنُ السَّيِّد (أُسَامَة) لأَنَّ ذَلكَ المَبْلَغَ كَانَ كَبيْراً جدّاً، لَكنَّهُ كَانَ قَدْ تَمَكَّنَ منْ تَوْفيْرِ مَبْلَغٍ مِنَ المَالِ يَفُوْقُ ذَلكَ المَبْلَغَ بقَليْلٍ، فَمَا كَانَ منْهُ إلَّا أَنْ قَالَ لِزَوْجه: "حَسَناً، سَأُعْطيْكِ هَذَا المَبْلَغَ".

أَخَذَ مَوْعدُ الحَفْلَة يَقْتَربُ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، إلَّا أَنَّ (مَاجدَةَ) بَقيَتْ حَزيْنَةً وَمُكْتَئبَةً حَتَّى بَعْدَ شرَائهَا الثَّوْبَ المُنَاسبَ، وَهَذَا مَا دَفَعَ زَوْجَهَا لسُؤَالهَا: "مَا الأَمْرُ يَا حَبيْبَتي؟ لمَاذَا أَنْت حَزيْنَةٌ الآنَ؟"

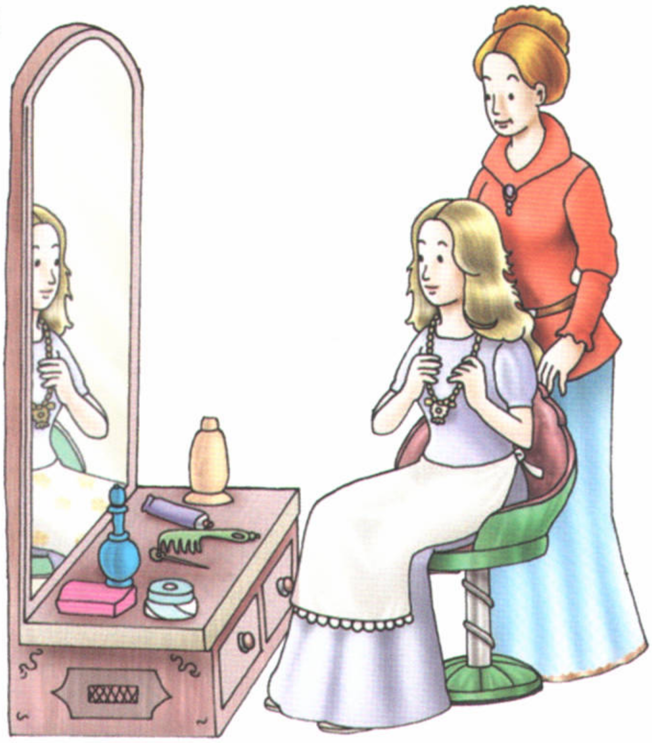
فَأَجَابَتْهُ: "لَيْسَ لَدَيَّ جَوَاهرُ أَرْتَديْهَا مَعَ ثَوْبِيَ الجَديْد وَلَا أُحبُّ أَنْ أَظْهَرَ بمَظْهَرِ الفَقيْرَة بَيْنَ بَقيَّة الحَاضريْنَ".

رَدَّ عَلَيْهَا زَوْجُهَا: "مَا رَأْيُك أَنْ تَتَزَيَّني بِالأَزْهَارِ الطَّبيْعيَّة، وَسَتَبْدُوْ عَلَيْكِ رَائعَةً بِالتَّأْكيْد، وَفي النِّهَايَة سَتَكُوْنُ أَرْخَصَ منَ الجَوَاهرِ الحَقيْقيَّة؟"

غَيْرَ أَنَّ (مَاجدَةَ) لَمْ تَحْفَلْ بِتلْكَ الفكْرَة أَبداً.

وَفَجأَةً صَرَخَ زَوْجُهَا: "لَقَدْ وَجَدْتُهَا يَا عَزيْزَتي! لمَاذَا لَمْ أُفَكِّرْ بذَلكَ منْ قَبْلُ؟ مَا رَأْيُك بأَنْ تَطْلُبي منْ صَديْقَتكِ السَّيِّدَة (نَدَى) بأَنْ تُعيْرَك منْ جَوَاهرهَا؟"

وَهُنَا هَتَفَتْ (مَاجدَةُ) بسُرُوْرٍ قَائلَةً: "فكْرَةٌ رَائعَةٌ! أَشْكُرُكَ يَا زَوْجيَ الحَبيْبَ! لأَنَّني لَمْ أَسْتَطعْ أَنْ أُفَكِّرَ بطَريْقَةٍ صَائبَةٍ حيْنَمَا كُنْتُ غَارقَةً في أَحْزَاني وَانْفعَالاتي، لَقَدْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَذَكَّرَ صَديْقَتي تلْكَ مُنْذُ البدَايَة".



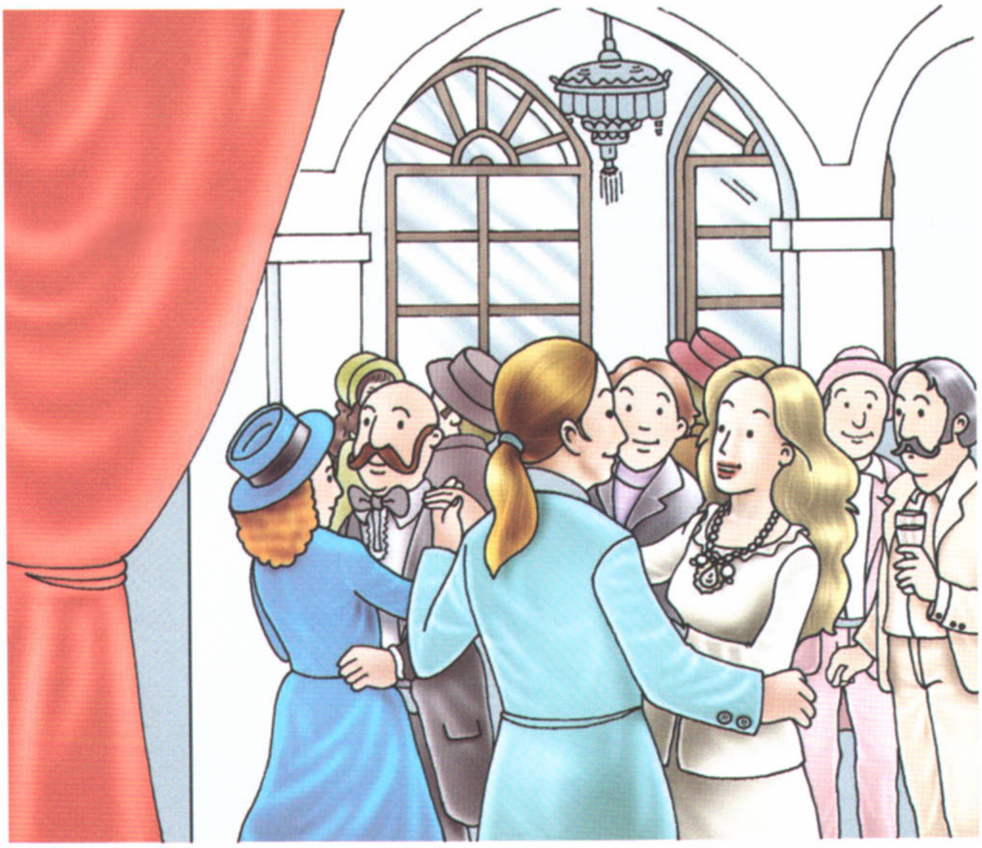
وَفي اليَوْمِ التَّالي ذَهَبَتْ (مَاجِدَةُ) لِزِيَارَةِ صَدِيْقَتِهَا الثَّرِيَّةِ في بَيْتِهَا، وَأَخْبَرَتْهَا بِمُشْكِلَتِهَا، فَأَسْرَعَتِ السَّيِّدَةُ (نَدَى) بِإِحْضَارِ صُنْدُوْقِ مُجَوْهَرَاتِهَا، ثُمَّ قَالَتْ لِـ(مَاجِدَةَ): "اِخْتَارِي أَيَّ قِطْعَةٍ تُعْجِبُكِ، لَكِنَّنِي أَظُنُّ أَنَّ اليَاقُوْتَ يُنَاسِبُكِ أَكْثَرَ".

وَبَعْدَ ارْتِدَاءِ (مَاجِدَةَ) عِدَّةَ قِطَعٍ عَلَى سَبِيْلِ التَّجْرِبَةِ وَقَعَتْ عَيْنَاهَا فَجْأَةً عَلَى عِقْدٍ مَاسِيٍّ فَخْمٍ، فَأَحَسَّتْ بِتَسَارُعٍ في نَبَضَاتِ قَلْبِهَا مِنْ شِدَّةِ الانْفِعَالِ، فَسَأَلَتْ صَدِيْقَتَهَا: "هَلْ بِوُسْعِكِ أَنْ تُعِيْرِيْنِي هَذَا العِقْدَ؟ فَأَنَا لَا أُرِيْدُ سِوَاهُ".

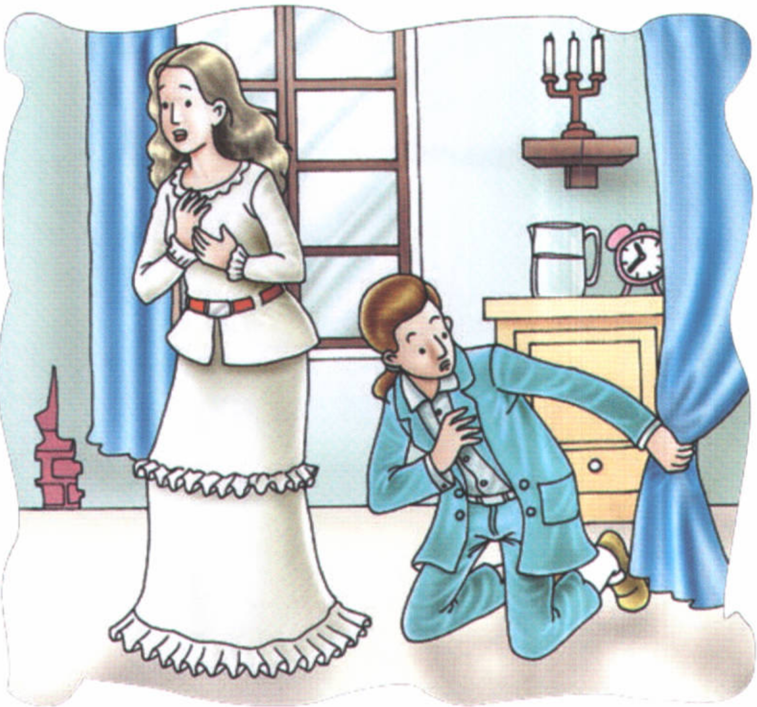
أَجَابَتْهَا صَدِيْقَتُهَا: "بِالتَّأْكِيْدِ"

فَمَا كَانَ مِنْ (مَاجِدَةَ) إِلَّا أَنْ عَانَقَتْ صَدِيْقَتَهَا بِكُلِّ امْتِنَانٍ، ثُمَّ غَادَرَتْ وَهِيَ تَصْطَحِبُ مَعَهَا ذَلِكَ العِقْدَ الثَّمِيْنَ.

وَفي يَوْمِ الحَفْلَةِ كَانَ السَّيِّدُ (أُسَامَةُ) يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ لِأَنَّهُ أَنْفَقَ كُلَّ مَا ادَّخَرَهُ لِشِرَاءِ ثَوْبٍ لِزَوْجِهِ الَّتِي بَدَتْ رَائِعَةَ الجَمَالِ، فَقَدْ كَانَتْ أَجْمَلَ مِنَ السَّيِّدَاتِ اللَّوَاتِي حَضَرْنَ الحَفْلَةَ كَافَّةً، كَمَا كَانَتْ أَكْثَرَهُنَّ أَنَاقَةً



وَلُطْفاً، وَلَمْ تُغادِرِ ابْتِسامَتُها شَفَتَيْها، كَما كانَتْ مُفْعَمَةً بالمَرَحِ وَالبَهْجَةِ، إلَى دَرَجَةِ أَنَّها لَفَتَتْ نَظَرَ كُلِّ مَنْ كانَ في الحَفْلِ، فَقَدْ كانَتْ فَرْحَتُها مَصْدَراً لِسَعادَةِ زَوْجِها وَفَخْرِهِ بِها؛ لِأَنَّها الأَجْمَلُ بَيْنَ النِّسْوَةِ اللَّاتي حَضَرْنَ الحَفْلَ جَميْعاً.



وَلَكِنَّ الأَوْقاتَ السَّعيْدَةَ تَمُرُّ سَريْعاً، وَكَذلِكَ كانَ الأَمْرُ في تِلْكَ الحَفْلَةِ الجَميْلَةِ، حَيْثُ غادَرَ الجَميْعُ قاعَةَ الاحْتِفالِ، وَخَرَجُوْا مِنَ المَبْنَى، فَوَضَعَ السَّيِّدُ (أُسامَةُ) شالاً فَوْقَ كَتِفَيْ زَوْجِهِ، غَيْرَ أَنَّ مَنْظَرَ ذلِكَ الشَّالِ المُهْتَرِئِ كانَ يَتَناقَضُ مَعَ الفُسْتانِ الرَّائِعِ الَّذي ارْتَدَتْهُ خِلالَ تِلْكَ الحَفْلَةِ.

وَسَرْعانَ ما وَصَلَ الزَّوْجانِ إلَى بَيْتِهِما، وَلَكِنْ حِيْنَما وَقَفَتْ (ماجِدَةُ) عِنْدَ طاوِلَةِ الزِّيْنَةِ في غُرْفَتِها لِتَخْلَعَ شالَها لاحَظَتْ فَجْأَةً خُلُوَّ رَقَبَتِها مِنْ أَيِّ عِقْدٍ، فَصَرَخَتْ صَرْخَةً مُدَوِّيَةً، صاحَتْ بَعْدَها قائِلَةً: "لَمْ أَجِدْ... لا أَسْتَطيْعُ... أَيْنَ عِقْدُ السَّيِّدَةِ (نَدى)؟"

عِنْدَها نَهَضَ السَّيِّدُ (أُسامَةُ) مِنْ مَكانِهِ مَذْعُوراً، وَصاحَ بِها: "ماذا؟ كَيْفَ حَدَثَ ذلِكَ؟ لا يُمْكِنُ!!!"

ثُمَّ شَرَعَ الزَّوْجانِ بِالبَحْثِ عَنِ العِقْدِ في كُلِّ مَكانٍ، فَأَخَذا يَبْحَثانِ عَنْهُ داخِلَ طَيَّاتِ ثَوْبِ (ماجِدَةَ)، ثُمَّ داخِلَ الشَّالِ، وَتَحْتَ السَّتائِرِ، إلَّا أَنَّهُما لَمْ يَعْثُرا عَلَيْهِ.

فَسَأَلَ الزَّوْجُ زَوْجَهُ قائِلاً: "هَلْ أَنْتِ مُتَأَكِّدَةٌ مِنْ أَنَّكِ كُنْتِ تَرْتَديْنَهُ بَعْدَ مُغادَرَتِنا قاعَةَ الاحْتِفالِ؟"

رَدَّتْ (ماجِدَةُ): "أَجَلْ، فَلَقَدْ تَحَسَّسْتُهُ في رَقَبَتي وَنَحْنُ نَخْرُجُ مِنَ القاعَةِ إلَى الطَّريْقِ".

فَقالَ زَوْجُها: "لَكِنْ لَوْ ضاعَ مِنْكِ في الطَّريْقِ لَكُنَّا سَمِعْنا صَوْتَ سُقُوْطِهِ"

بَعْدَ ذلِكَ خَرَجَ السَّيِّدُ (أُسامَةُ) سَيْراً عَلَى الأَقْدامِ لَعَلَّهُ يَعْثُرُ عَلَى العِقْدِ في الطَّريْقِ الَّذي سَلَكاهُ لِتَوِّهِما، وَأَثْناءَ ذلِكَ جَلَسَتْ (ماجِدَةُ) فَوْقَ سَريْرِها دُوْنَ أَنْ تَخْلَعَ ثَوْبَها الجَديْدَ، فَقَدْ بَلَغَ الضَّعْفُ وَالعَجْزُ مِنْها كُلَّ مَبْلَغٍ.

وَمَضَتْ ساعاتٌ طَويْلَةٌ قَبْلَ أَنْ يَعُوْدَ السَّيِّدُ (أُسامَةُ) إلَى مَنْزِلِهِ، إلَّا أَنَّهُ حِيْنَما عادَ كانَ وَجْهُهُ شاحِباً، وَآثارُ القَلَقِ بادِيَةً عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدِ العِقْدَ.

وَلِذا انْطَلَقَ الزَّوْجانِ في اليَوْمِ التَّالي مِنْ بَيْتِهِما، وَوَصَلا إلَى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ، وَمِنْ ثَمَّ وَضَعا إعْلاناً في الجَريْدَةِ عَرَضا مِنْ خِلالِهِ مُكافَأَةً لِمَنْ يَجِدُ ذلِكَ العِقْدَ الماسيَّ الثَّميْنَ.

ثُمَّ اتَّفَقا عَلَى أَنْ تُخْبِرَ (ماجِدَةُ) صَديْقَتَها بِأَنَّ قُفْلَ العِقْدِ قَدْ كُسِرَ، وَبِأَنَّها قَدْ أَرْسَلَتْهُ إلَى أَحَدِ المَحَلَّاتِ لِيُصْلِحَهُ.

وَمَعَ نِهايَةِ ذلِكَ الأُسْبُوْعِ فَقَدَ الزَّوْجانِ الأَمَلَ في العُثُوْرِ عَلَى ذلِكَ العِقْدِ.

وَأخيْراً، وَبَعْدَمَا تَأَكَّدَا مِنْ فِقْدَانِ العِقْدِ قَالَ السَّيِّدُ (أُسامَةُ):"عَلَيْنَا أنْ نُفكِّرَ بِطَرِيْقَةٍ لِتَعْوِيْضِ صَدِيْقَتِكِ عَنِ العِقْدِ الضَّائعِ".

وَلِذَلِكَ أَخَذَ الزَّوْجَانِ يَجُوْلَانِ فِي مَحَلَّاتِ المُجَوْهَرَاتِ لِتَقْدِيْرِ قِيْمَةِ ذَلِكَ العِقْدِ، وَبَعدَ جَوْلاتٍ كَثِيْرَةٍ، وَسُؤَالٍ وَبَحْثٍ طَوِيْلَيْنِ وَجَدَا عِقْداً مُشَابِهاً تَمَاماً لِلْعِقْدِ المَفْقُوْدِ، وَكَانَ ثَمَنُهُ سِتَّةٌ وَثَلاثُوْنَ أَلْفَ قِطْعَةٍ نَقْدِيَّةٍ.

كَانَ وَالِدُ السَّيِّدِ (أُسامَةَ) قَدْ تَرَكَ لَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ عِشْرِيْنَ أَلْفَ قِطْعَةٍ نَقْدِيَّةٍ، فَاقْتَرَضَ بَاقِيَ المَبْلَغِ مِنْ أَصْحَابِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ مَسْؤُوْلاً مَعَ زَوْجِهِ عَنْ إِعَادَةِ العِقْدِ إِلَى صَاحِبَتِهِ، لِذَا بَذَلَا كُلَّ مَا بِوُسْعِهِمَا لِتَحَمُّلِ تِلْكَ المَسْؤُوْلِيَّةِ.

بَعْدَ ذَلِكَ اشْتَرَى الزَّوْجَانِ العِقْدَ بِالمَالِ الَّذِي اقْتَرَضَاهُ وَادَّخَرَاهُ، وَحِيْنَمَا ذَهَبَتْ (مَاجِدَةُ) إِلَى صَدِيْقَتِهَا لِإِعَادَةِ العِقْدِ؛ وَجَدَتِ الأَخِيْرَةَ مُغْتَاظَةً مِنْهَا لِتَأَخُّرِهَا فِي إِعَادَتِهِ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ وَقَعَتْ (مَاجِدَةُ) ضَحِيَّةً لِحَيَاةٍ بَائِسَةٍ يَسُوْدُهَا الفَقْرُ وَالعَوَزُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي عَلَيْهَا وَعَلَى زَوْجِهَا تَسْدِيْدُ دُيُوْنِهِمَا، بَلْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِباً عَلَيْهِمَا، وَلَاسِيَّمَا هِيَ.

لِذَا قَرَّرَتْ (مَاجِدَةُ) أَنْ تَنْتَقِلَ مِنْ شُقَّتِهَا إِلَى مَكَانٍ أَقَلَّ كُلْفَةً، كَمَا صَرَفَتْ خَادِمَتَهَا، وَبَدَأَتْ تَقُوْمُ بِنَفْسِهَا





بِأَعْبَاءِ البَيْتِ مِنْ تَنْظِيْفِ الأَرْضِيَّةِ، وَغَسْلِ الصُّحُوْنِ، وَبَدَأَتْ تُسَاوِمُ البَاعَةَ فِي الأَسْوَاقِ لِشِرَاءِ لَوَازِمِ البَيْتِ بِأَرْخَصِ الأَسْعَارِ.

أَمَّا زَوْجُهَا السَّيِّدُ (أُسَامَةُ) فَقَدْ أَخَذَ يَعْمَلُ فِي مَكْتَبِهِ طِيْلَةَ النَّهَارِ، كَمَا وَجَدَ لِنَفْسِهِ عَمَلاً آخَرَ بِدَوَامٍ مَسَائِيٍّ.

وَاسْتَمَرَّتْ بِهِمَا حَالَةُ الفَقْرِ المُدْقِعِ طِيْلَةَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، تَمَكَّنَا بَعْدَ انْقِضَائِهَا مِنْ تَسْدِيْدِ دُيُوْنِهِمَا كَافَّةً.

وَبَعْدَ مُرُوْرِ تِلْكَ السِّنِيْنَ اِكْتَشَفَتْ (مَاجِدَةُ) أَنَّ آثَارَ الزَّمَنِ بَاتَتْ وَاضِحَةً فِيْهَا، إِذْ لَمْ تَعُدْ تِلْكَ الفَتَاةَ الشَّابَّةَ الجَمِيْلَةَ الَّتِي فَتَنَتْ جَمِيْعَ الحَاضِرِيْنَ فِي تِلْكَ الحَفْلَةِ.

وَفِي إِحْدَى الأُمْسِيَاتِ، وَبَيْنَمَا كَانَتْ (مَاجِدَةُ) تَتَنَزَّهُ فِي يَوْمِ عُطْلَتِهَا لِتُزِيْلَ عَنْ نَفْسِهَا مَا عَلَقَ بِهَا مِنْ

هُمُوْم طِيْلَةَ الأُسْبُوْعِ، اِلْتَقَتْ مُصادَفَةً بِصَدِيْقَتِهَا السَّيِّدَةِ (نَدَى) الَّتِي بَدَتْ لَهَا جَمِيْلَةً وَشَابَّةً وَمُرْتَاحَةَ البَالِ، بَيْدَ أَنَّ الأَخِيْرَةَ لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنَ التَّعَرُّفِ عَلَى صَدِيْقَتِهَا (مَاجِدَةَ) بَادِئَ ذِي بَدْءٍ، لَكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ تَذَكَّرَتْهَا، فَصَرَخَتْ لِفَرْطِ دَهْشَتِهَا مِنَ الحَالِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا صَدِيْقَتُهَا! فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَالَتْهُ لَهَا: "آهٍ يَا (مَاجِدَةُ) المِسْكِيْنَةُ، لَكَمْ تَغَيَّرْتِ يَا عَزِيْزَتِي!".

أَجَابَتْهَا (مَاجِدَةُ): "أَعْرِفُ، فَقَدْ مَرَرْتُ بِأَحْوَالٍ عَصِيْبَةٍ".

فَسَأَلَتْهَا السَّيِّدَةُ (نَدَى): "وَكَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟"

رَدَّتْ (مَاجِدَةُ): "وَهَلْ سَتُصَدِّقِيْنَنِي إِنْ أَخْبَرْتُكِ بِأَنَّ كُلَّ مَشَاكِلِي بَدَأَتْ مُنْذُ أَنِ اسْتَعَرْتُ العِقْدَ مِنْكِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيْلَةٍ؟"

فَبَدَتِ الحَيْرَةُ عَلَى وَجْهِ السَّيِّدَةِ (نَدَى) الَّتِي عَبَّرَتْ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهَا: "لَمْ أَفْهَمْ قَصْدَكِ".

فَأَجَابَتْهَا (مَاجِدَةُ): "هَلْ تَتَذَكَّرِيْنَ العِقْدَ المَاسِيَّ الَّذِي أَعَرْتِنِي إِيَّاهُ مُنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ؟"

قَالَتِ السَّيِّدَةُ (نَدَى): "نَعَمْ أَذْكُرُهُ".

قَالَتْ (مَاجِدَةُ): "حَسَناً، لَقَدْ أَضَعْتُ عِقْدَكِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ المَشْؤُوْمَةِ".

أَجَابَتْهَا السَّيِّدَةُ (نَدَى): "لَا يُمْكِنُ، لِأَنَّكِ أَعَدْتِ العِقْدَ لِي".

قَالَتْ (مَاجِدَةُ): "لَقَدْ أَعَدْتُ لَكِ عِقْداً آخَرَ كَانَ يُشْبِهُهُ تَمَاماً، وَاسْتَلْزَمَ تَسْدِيْدُ ثَمَنِ ذَلِكَ العِقْدِ عَشْرَ سَنَوَاتٍ مِنَ العَمَلِ وَالكَدْحِ، إِلَّا أَنِّي أَشْعُرُ بِالرِّضَا وَالارْتِيَاحِ الآنَ لِأَنِّي كُنْتُ عَلَى قَدْرِ تِلْكَ المَسْؤُوْلِيَّةِ، كَمَا أُحِسُّ بِسَعَادَةٍ كَبِيْرَةٍ لِأَنِّي تَخَلَّصْتُ مِنْ دُيُوْنِي".

قَالَتِ السَّيِّدَةُ (نَدَى): "أَتُرِيْدِيْنَ أَنْ تُقْنِعِيْنِي بِأَنَّكِ اشْتَرَيْتِ عِقْداً مَاسِيّاً عِوَضاً عَنْ عِقْدِي الَّذِي أَعَرْتُكِ إِيَّاهُ؟"

رَدَّتْ (مَاجِدَةُ): "أَجَلْ، وَلَقَدْ كُنْتُ مَحْظُوْظَةً لِأَنِّي وَجَدْتُ عِقْداً يُشْبِهُهُ".

عِنْدَهَا بَدَا التَّأَثُّرُ عَلَى وَجْهِ السَّيِّدَةِ (نَدَى)، فَأَمْسَكَتْ بِيَدَيْ (مَاجِدَةَ) وَقَالَتْ لَهَا: "لِلأَسَفِ يَا (مَاجِدَةُ) المِسْكِيْنَةُ، لَقَدْ كَانَ عِقْدِي مَصْنُوْعاً مِنَ المُجَوْهَرَاتِ التَّقْلِيْدِيَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ أَبَداً بِقِيْمَةِ خَمْسِ مِئَةِ قِطْعَةٍ نَقْدِيَّةٍ".



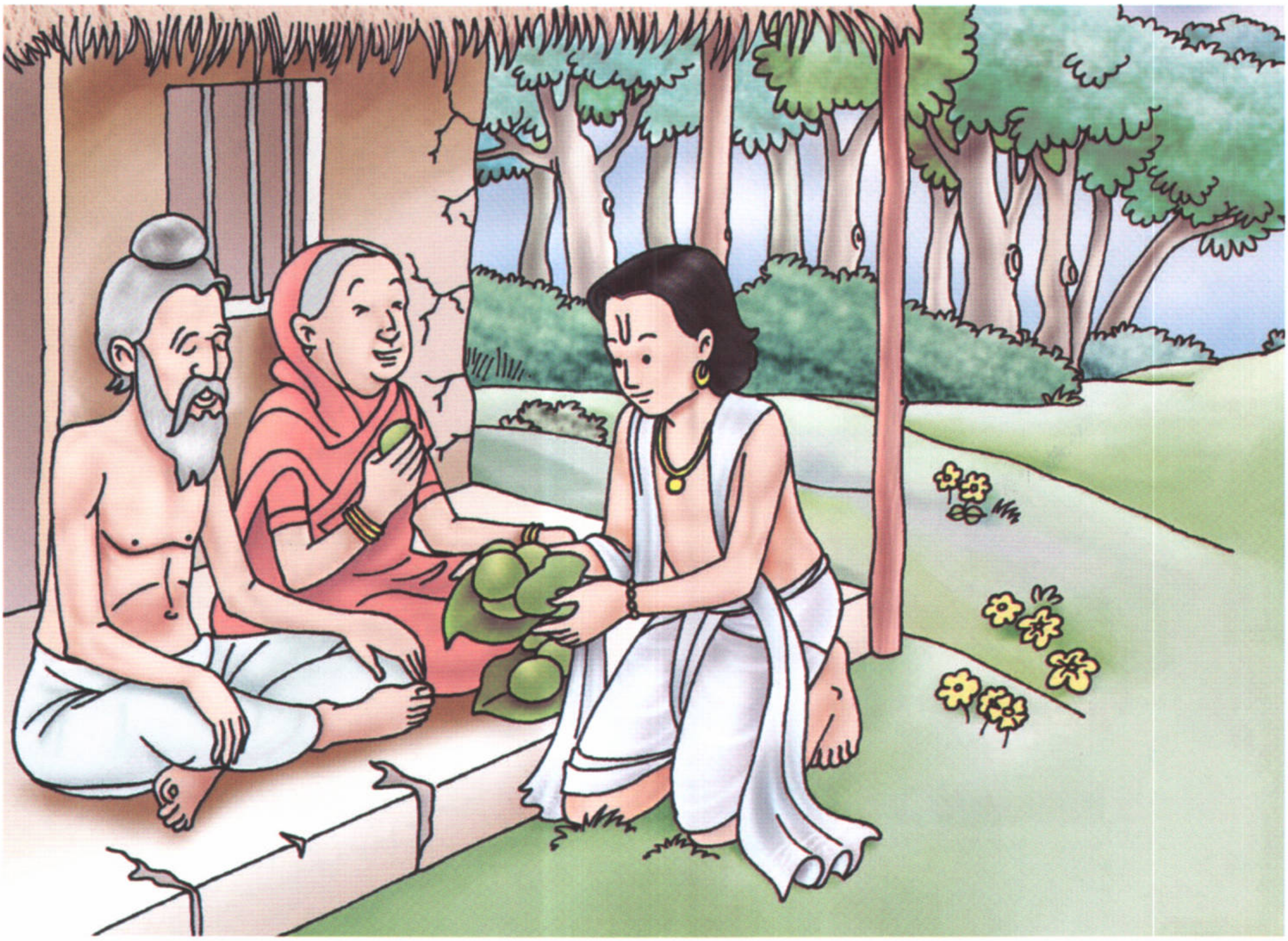
حِكَايَةُ (شرافان)

يُحْكَى أَنَّهُ فِي قَدِيْمِ الزَّمَانِ عَاشَ فَتىً يَافِعٌ يُدْعَى (شرافان) فِي قَرْيَةٍ هِنْدِيَّةٍ صَغِيْرَةٍ، وَقَدْ وُلِدُ (شرافان) لِأَبَوَيْنِ فَقِيْرَيْنِ مُعْدَمَيْنِ، إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُمَا كَانَا لَا يَسْتَطِيْعَانِ تَأْمِيْنَ قُوْتَهُمَا وَقُوْتَ صَغِيْرِهِمَا فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، وَمِمَّا زَادَ الطِّيْنَ بِلَّةً أَنَّهُمَا كَانَا ضَرِيْرَيْنِ، إِلَّا أَنَّ ابْنَهُمَا الصَّغِيْرَ لَمْ يَكُنْ يَتَذَمَّرُ، أَوْ يَشْكُوْ مِنْ إِعَاقَتِهِمَا.

وَلِهَذَا كَانَ هَذَانِ الأَبَوَانِ يَشْعُرَانِ بِأَنَّ ابْنَهُمَا نِعْمَةٌ وَهَبَهَا اللهُ لَهُمَا، وَهَذَا مَا جَعَلَهُمَا يُحِبَّانِهِ وَيَتَعَلَّقَانِ بِهِ كَثِيْراً، إِلَّا أَنَّ الإِحْسَاسَ بِالذَّنْبِ لَمْ يَكُنْ يُفَارِقُهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَتَمَكَّنَا مِنْ تَوْفِيْرِ حَيَاةٍ سَعِيْدَةٍ وَخَالِيَةٍ مِنَ الهُمُوْمِ لِصَغِيْرِهِمَا.

وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ خَاطَبَتِ الأُمُّ ابْنَهَا قَائِلَةً: "يَا بُنَيَّ! لَقَدْ كُنْتَ ابْناً بَارّاً وَعَطُوْفاً عَلَى الدَّوَامِ، لَكِنَّنِي عَلَى يَقِيْنٍ مِنْ أَنَّهُ تَمُرُّ عَلَيْكَ بَعْضُ اللَّحَظَاتِ الَّتِي تَشْعُرُ فِيْهَا بِالأَسَى لِأَنَّكَ وُلِدْتَ لِأَبَوَيْنِ عَاجِزَيْنِ، لَكِنْ مَا بِاليَدِ حِيْلَةٌ، وَلَيْسَ لِي سِوَى أَنْ أَعْتَذِرَ لَكَ عَنْ تَقْصِيْرِنَا، وَعَنِ الحِمْلِ الَّذِي أَرْهَقْنَا بِهِ كَاهِلَكَ".

فَأَتَى رَدُّ (شرافان): "أَرْجُوْكِ يَا أُمِّي، لَا تَقُوْلِي هَذَا الكَلَامَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ الآنَ".





ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلاً: "وَالآنَ نَاوِلِيْنِي طَبَقَ الخُضَارِ لِأُقَطِّعَهَا، وَمِنْ ثَمَّ سَأَدَعُكِ تُعَلِّمِيْنِي طَرِيْقَةَ طَهْيِهَا".

كَانَتْ مَسْؤُوْلِيَّاتُ (شرافان) وَوَاجِبَاتُهُ تَتَزَايَدُ سَنَةً بَعْدَ أُخْرَى، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُبْدِ أَيَّ تَذَمُّرٍ إِزَاءَ ذَلِكَ، وَمَضَتِ السِّنُوْنَ عَلَى ذَلِكَ الحَالِ.

وَحِيْنَمَا أَصْبَحَ (شرافان) شَابّاً، وَبَلَغَ وَالِدَاهُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيّاً، قَرَّرَ كِلَاهُمَا الذَّهَابَ فِي رِحْلَةٍ مُقَدَّسَةٍ قَبْلَ أَنْ يُوَافِيَهُمَا الأَجَلُ، لَكِنَّهُمَا وَجَدَا صُعُوْبَةً فِي ذَلِكَ لِكِبَرِ سِنِّهِمَا، وَلِفَقْرِهِمَا، نَاهِيْكَ عَنْ فِقْدَانِهِمَا حَاسَّةَ البَصَرِ، بَيْدَ أَنَّ (شرافان) أَحَسَّ بِشِدَّةِ شَوْقِهِمَا لِتِلْكَ الرِّحْلَةِ، وَذَلِكَ حِيْنَمَا رَأَى مَدَى تَعَاسَتِهِمَا، فَقَرَّرَ إِيْجَادَ طَرِيْقَةٍ تُسَاعِدُهُمَا عَلَى الخُرُوْجِ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ.

وَبَعْدَ تَفْكِيْرٍ طَوِيْلٍ، وَالتَّضَرُّعِ بِحُرْقَةٍ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَطَرَتْ لِـ(شرافان) فِكْرَةٌ، تَتَلَخَّصُ بِأَنْ يَحْمِلَ وَالِدَيْهِ إِلَى الأَرَاضِي المُقَدَّسَةِ مَعَ تَحَمُّلِ عَنَاءِ الرِّحْلَةِ، وَمَصَاعِبِ الطَّرِيْقِ وَمَشَقَّاتِهِ كَافَّةً نِيَابَةً عَنْهُمَا.

وَفِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي انْطَلَقَ (شرافان) فِي رِحْلَةِ المَحَبَّةِ الَّتِي أَعَدَّهَا مِنْ أَجْلِ وَالِدَيْهِ، فَوَضَعَ وَالِدَيْهِ فِي سَلَّتَيْنِ مِنَ القَصَبِ، وَعَلَّقَ السَّلَّتَيْنِ عَلَى طَرَفَيْ عَصاً غَلِيْظَةٍ مَصْنُوْعَةٍ مِنَ الخَيْزُرَانِ، ثُمَّ وَضَعَ العَصَا فَوْقَ كَتِفَيْهِ، وَسَارَ وَهُوَ يَحْمِلُهُمَا، فَكَانَ كُلُّ مَنْ يَرَى ذَلِكَ المَنْظَرَ يُدْهَشُ لِشِدَّةِ تَكْرِيْمِ (شرافان) لِوَالِدَيْهِ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُمَا.

وَبَعْدَ أَنْ طَافَ (شرافان) بِوَالِدَيْهِ فِي كُلِّ شِبْرٍ مِنَ الأَمَاكِنِ المُقَدَّسَةِ الَّتِي رَغِبَا فِي زِيَارَتِهَا، وَصَلُوْا إِلَى مِنْطَقَةٍ كَانَ يَحْكُمُهَا أَحَدُ المُلُوْكِ، فَقَرَّرُوْا أَنْ يَسْتَرِيْحُوْا هُنَاكَ بَعْضَ الوَقْتِ قَبْلَ مُتَابَعَةِ الرِّحْلَةِ، فَوَجَدَ (شرافان) فِي تِلْكَ المِنْطَقَةِ كُوْخاً صَغِيْراً مُنَاسِباً لِوَالِدَيْهِ، فَأَدْخَلَهُمَا إِلَيْهِ لِأَخْذِ قِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ، وَبَعْدَمَا

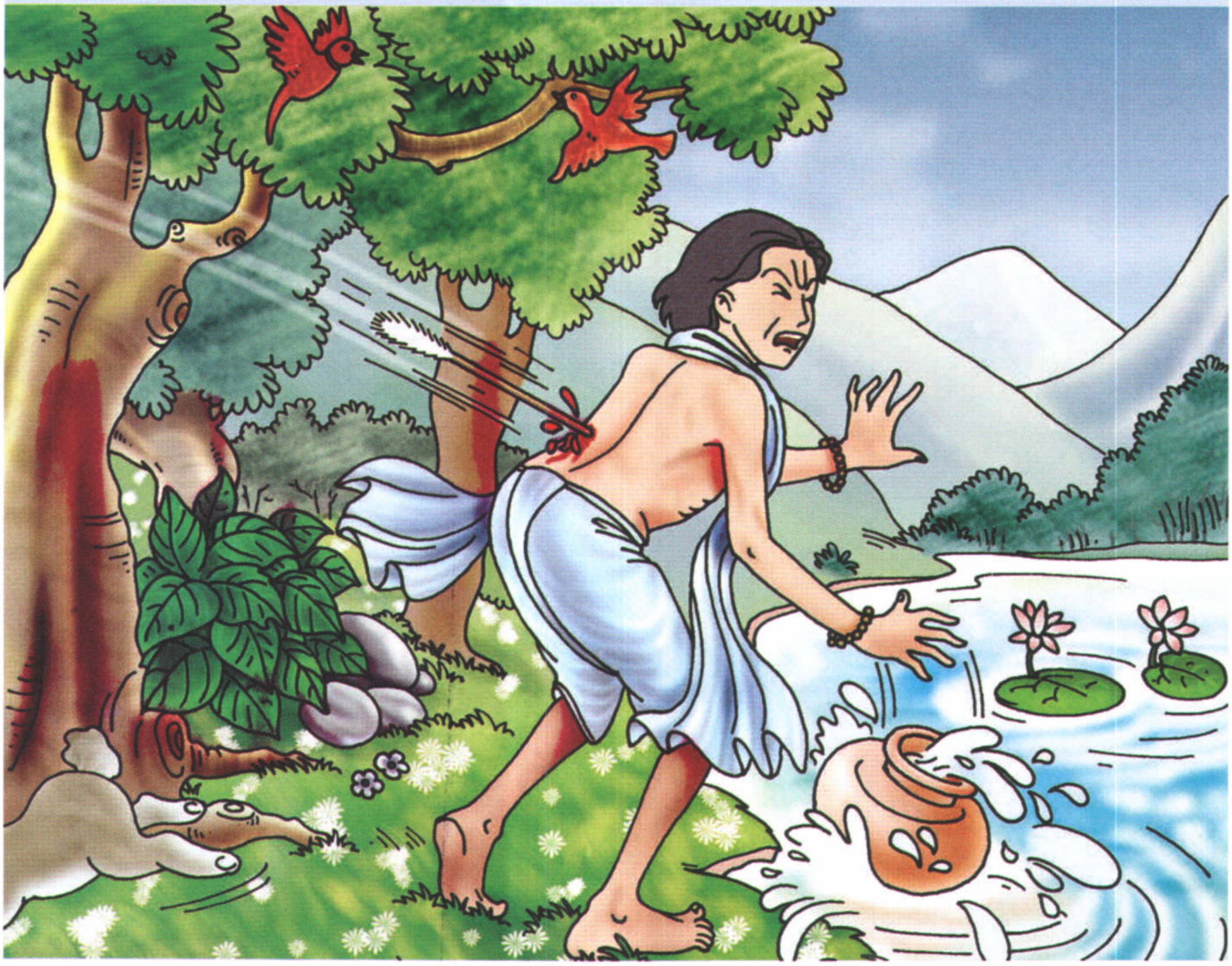
رَتَّبَ (شرافان) الوَضْعَ في ذَلِكَ الكُوْخِ لِيَقْضِيَ وَالِدَاهُ فِيْهِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ، أَعَدَّ لِنَفْسِهِ فِرَاشاً مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ خَارِجَ الكُوْخِ، ثُمَّ تَمَدَّدَ فَوْقَهُ لِيَنَالَ حِصَّتَهُ مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ التَّعَبِ.

لَكِنَّهُ سَمِعَ صَوْتَ أُمِّهِ تُنَادِيْهِ، فَهَبَّ مُسْرِعاً لِيَرَى مَاذَا تُرِيْدُ مِنْهُ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا تَشْعُرُ بِعَطَشٍ شَدِيْدٍ، وَطَلَبَتْ مِنْهُ المَاءَ لِتَشْرَبَ، لَكِنْ حِيْنَمَا أَمْسَكَ (شرافان) بِقِرْبَةِ المَاءِ اكْتَشَفَ أَنَّهَا كَانَتْ فَارِغَةً، لِذَا فَلَا بُدَّ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى النَّهْرِ لِيُحْضِرَ بَعْضَ المَاءِ لِأُمِّهِ.

وَفِي ذَلِكَ الحِيْنِ كَانَ المَلِكُ فِي رِحْلَةِ صَيْدٍ لَيْلِيَّةٍ فِي الغَابَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ المَلِكُ يَتَمَيَّزُ بِمَهَارَةٍ عَجِيْبَةٍ فِي الصَّيْدِ، فَحِيْنَمَا انْحَنَى (شرافان) وَوَضَعَ القِرْبَةَ فِي المَاءِ، صَدَرَ مِنْهَا صَوْتٌ غَرِيْبٌ، لَمْ يَكُنْ فِي الحَقِيْقَةِ إِلَّا صَوْتَ المَاءِ وَهُوَ يَدْخُلُ فِيْهَا، فَظَنَّ المَلِكُ أَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتَ مَا هُوَ إِلَّا صَوْتُ فِيْلٍ يَعُبُّ المَاءَ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ صَوَّبَ سَهْمَهُ نَحْوَ جِهَةِ الصَّوْتِ، ثُمَّ أَطْلَقَهُ.

وَفِي تِلْكَ الأَثْنَاءِ، وَبَعْدَمَا امْتَلَأَتِ القِرْبَةُ بِالمَاءِ، وَكَانَ (شرافان) يَهُمُّ بِالعَوْدَةِ إِلَى البَيْتِ؛ أُصِيْبَ بِسَهْمٍ اخْتَرَقَ جَسَدَهُ فَجْأَةً، فَأَخَذَ يَصْرُخُ مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ، ثُمَّ سَقَطَ عَلَى الأَرْضِ.

تَجَمَّدَ المَلِكُ فِي مَكَانِهِ عِنْدَمَا سَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانٍ يَصْرُخُ، فَالصَّوْتُ الَّذِي سَمِعَهُ لَمْ يَكُنْ صَوْتَ فِيْلٍ أَبَداً.





فَانْدَفَعَ المَلِكُ مِنْ فَوْرِهِ نَحْوَ مَصْدَرِ الصَّوْتِ، وَجَلَسَ إِلَى جَانِبِ الشَّابِّ الَّذِي كَانَ يُحْتَضَرُ، وَقَدْ رَسَمَ الأَلَمُ خُطُوطَهُ عَلَى سَائِرِ مَعَالِمِ وَجْهِهِ، فَأَخْبَرَ (شرافان) المَلِكَ بِقِصَّةِ وَالِدَيْهِ الضَّرِيرَيْنِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُحْضِرَ لأُمِّهِ شَرْبَةَ مَاءٍ، ثُمَّ اسْتَلْقَى، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ لِبَارِيْهَا.

كَانَ وَالِدَا (شرافان) يَنْتَظِرَانِ وَلَدَيْهِمَا عَلَى أَحَرَّ مِنَ الجَمْرِ؛ لأَنَّهُمَا قَلِقَا مِنْ تَأَخُّرِهِ كُلَّ هَذَا الوَقْتِ، لَكِنْ مَا لَبِثَ قَلَقُهُمَا أَنْ تَبَدَّدَ حِيْنَمَا سَمِعَا وَقْعَ أَقْدَامٍ خَارِجَ كُوخِهِمَا.

وَهُنَا صَرَخَتِ الأُمُّ: "(شرافان)! لِمَاذَا تَأَخَّرْتَ يَا وَلَدِي؟"

غَيْرَ أَنَّ (شرافان) لَمْ يَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ، بَلْ فُوجِئَ الأَبَوَانِ بِصَوْتِ المَلِكِ وَهُوَ يُخَاطِبُهُمَا قَائِلاً: "أَنَا لَسْتُ بِابْنِكُمَا (شرافان)، بَلْ أَنَا المَلِكُ، وَيُؤْسِفُنِي أَنْ أَحْمِلَ لَكُمَا أَنْبَاءً سَيِّئَةً، فَلَقَدْ تُوُفِّيَ وَلَدُكُمَا، وَأَنَا السَّبَبُ فِي كُلِّ مَا حَدَثَ لَهُ".

أَخْرَسَتِ الصَّدْمَةُ مِنْ هَوْلِهَا الأَبَوَيْنِ المِسْكِيْنَيْنِ، إِلَّا أَنَّ الأُمَّ صَرَخَتْ مُخَاطِبَةً المَلِكَ: "مَاذَا قُلْتَ؟.

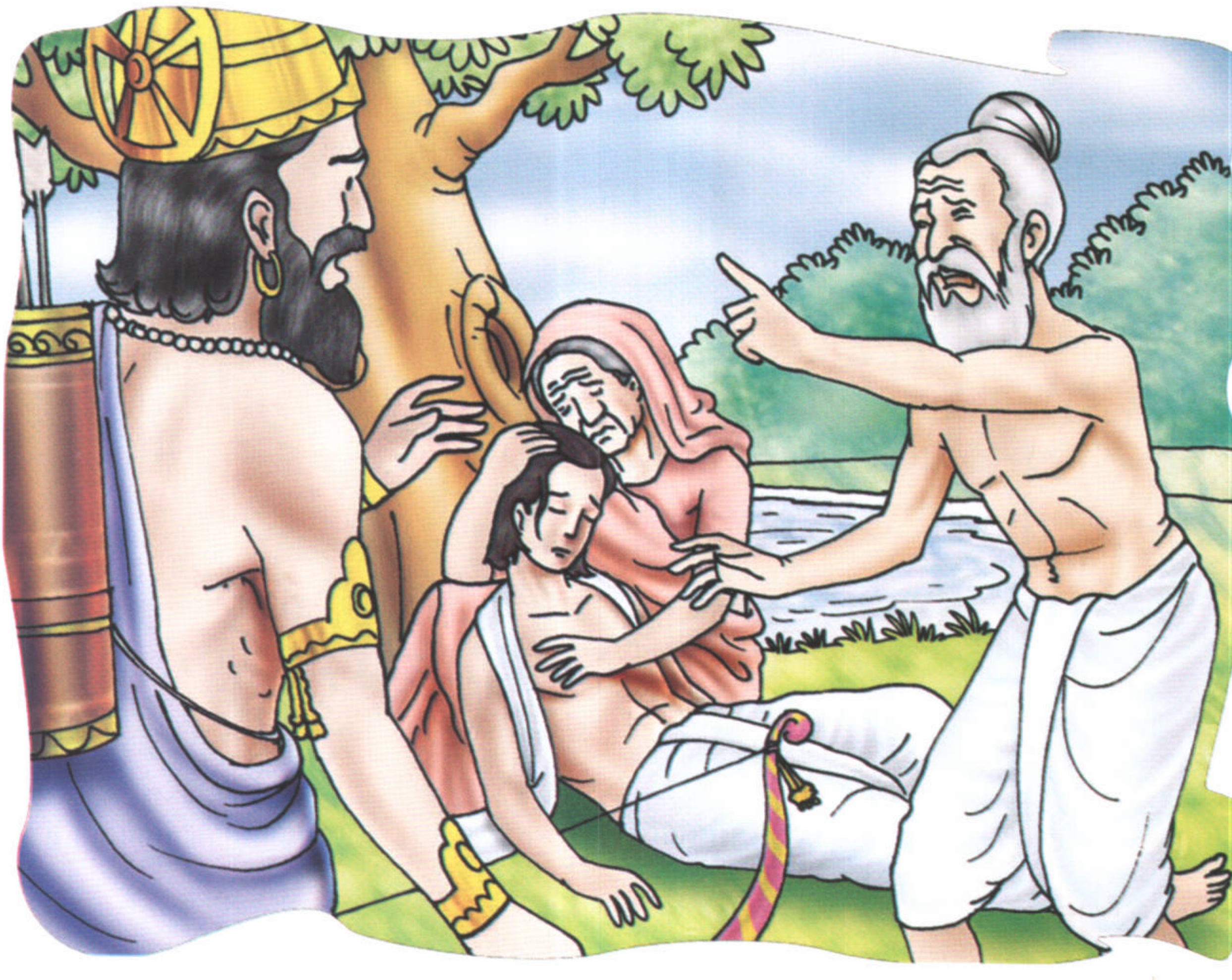
لَقَدْ ذَهَبَ اِبْنِي لِيَجْلِبَ لَنَا بَعْضَ المَاءِ"، ثُمَّ أَجْهَشَتْ بِالبُكَاءِ حُزْناً وَأَلَماً عَلَى وَلَدِهَا.

وَاقْتَادَ المَلِكُ الأَبَوَيْنِ المِسْكِيْنَيْنِ إِلَى المَكَانِ الَّذِي يَرْقُدُ فِيْهِ اِبْنُهُمَا مَيْتاً، فَلَمْ يَسْتَطِعْ كِلاهُمَا أَنْ يَتَمَالَكَ نَفْسَهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، حَيْثُ رَكَعَا بِجَانِبِ الابْنِ المَيْتِ بِقُلُوْبٍ تَتَفَطَّرُ حُزْناً، وَمَا لَبِثَ أَنْ تَحَوَّلَ حُزْنُهُمَا إِلَى غَضَبٍ وَغَيْظٍ، فَانْهَالا عَلَى المَلِكِ بِالشَّتَائِمِ وَالسِّبَابِ، وَقَالا لَهُ: "وَأَنْتَ أَيْضاً سَتَلْقَى مَصِيْرَكَ، وَسَتُعَذَّبُ العَذَابَ الَّذِي اِبْتَلَيْتَنَا بِهِ، سَتَمُوْتُ بَعْدَ أَنْ تُعَانِيَ مِنْ أَلَمِ الفِرَاقِ عَلَى وَلَدِكَ"، وَبَعْدَ أَنْ نَطَقَا بِذَلِكَ تُوُفِّيَا عَلَى الفَوْرِ.

وَلَقَدْ صَدَقَتْ نُبُوْءَتُهُمَا، فَبَعْدَ مُضِيِّ سَنَوَاتٍ عَدِيْدَةٍ تُوُفِّيَ ذَلِكَ المَلِكُ حُزْناً وَكَمَداً، حِيْنَمَا نَفَى اِبْنَهُ (رام) مِنَ البِلَادِ مُدَّةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَاماً، اِلْتِزَاماً بِوَعْدٍ قَطَعَهُ عَلَى نَفْسِهِ أَمَامَ زَوْجِهِ الَّتِي كَانَتْ خَالَةَ وَلَدِهِ، فَقَدْ أَرَادَتْ أَنْ يُصْبِحَ اِبْنُهَا هِيَ مَلِكاً بَعْدَ أَبِيْهِ.

غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ اللَّعْنَةَ لَمْ تُعِدْ لِوَالِدَيْ (شرافان) اِبْنَهُمَا، بَلْ سَبَّبَتِ المَزِيْدَ مِنَ الأَسَى وَالحُزْنِ.

وَبِذَلِكَ تَنْتَهِي قِصَّةُ (شرافان) ذَلِكَ الابْنُ البَارُّ الَّذِي تَحَمَّلَ مَسْؤُوْلِيَّاتِهِ وَوَاجِبَاتِهِ عَنْ طِيْبِ خَاطِرٍ.



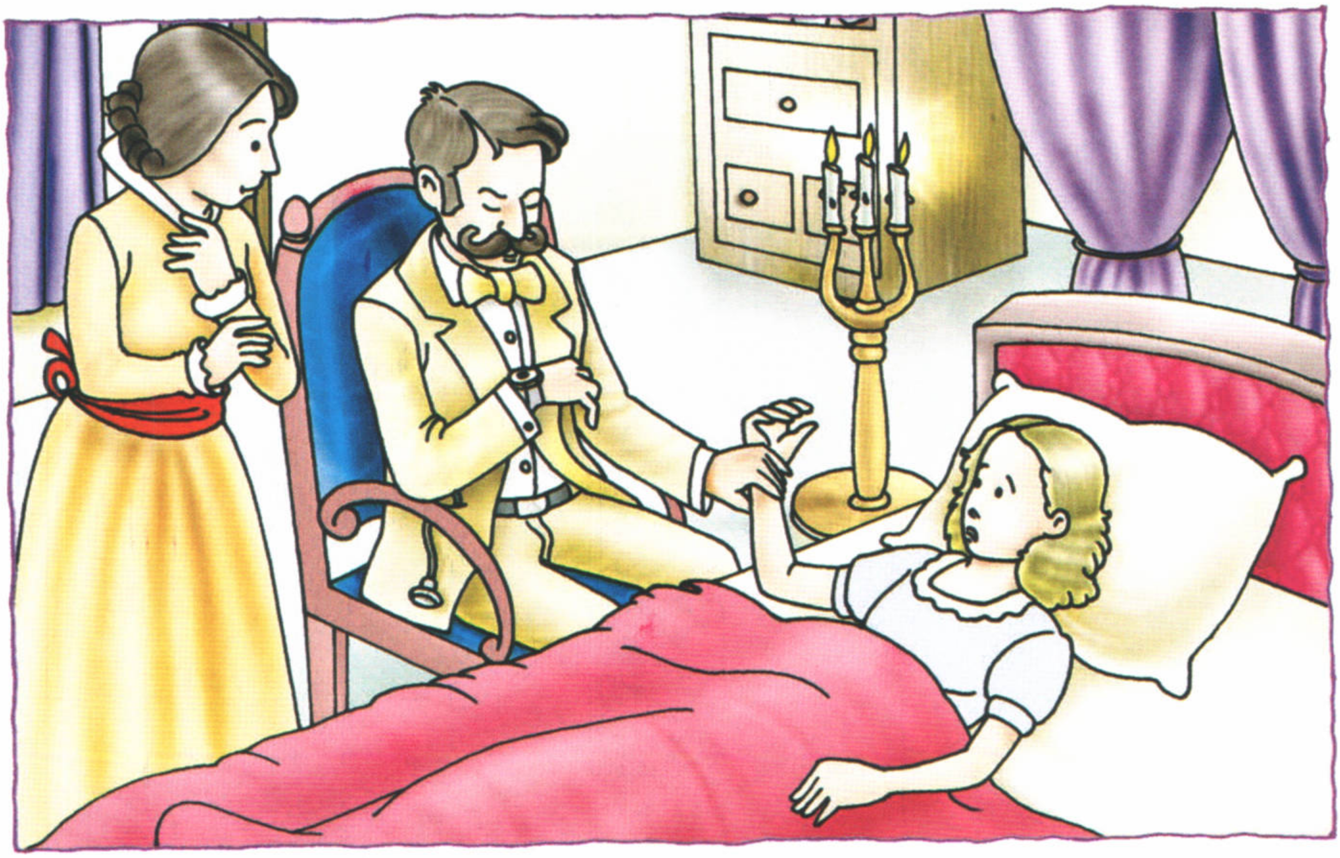
جَمْعِيَّةُ الصَّلِيْبِ الأَحْمَرِ



لَمْ يَكُنْ (جان هنري دونانت) يَعْرِفُ طَعْمَ الحَاجَةِ أَوِ العَوَزِ أَبَداً؛ لِأَنَّهُ نَشَأَ ضِمْنَ عَائِلَةٍ كَانَتْ تُلَبِّي لَهُ احْتِيَاجَاتِهِ كُلَّهَا، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ فَتىً لَمَّاحاً وَذَكِيّاً، فَبَعْدَ أَنْ حَصَلَ عَلَى الشَّهَادَةِ الثَّانَوِيَّةِ قَرَّرَ أَنْ يَدْرُسَ الطِّبَّ، وَكَانَ وَالِدَاهُ يَمْلِكَانِ مِنَ الثَّرْوَةِ مَا سَاعَدَهُ عَلَى تَحْقِيْقِ رَغْبَتِهِ، بِخِلَافِ بَعْضِ العُظَمَاءِ مِنْ أَمْثَالِ (ماري كوري) العَالِمَةِ الَّتِي حَصَلَتْ عَلَى جَائِزَةِ (نوبِل)، فَقَدْ كَانَتْ تَعْمَلُ لِتَحْصِيْلِ رُسُوْمِ دِرَاسَتِهَا الجَامِعِيَّةِ.

كَانَ (دونانت) يَتَمَيَّزُ بِقُدْرَاتٍ كَبِيْرَةٍ، لِذَا سَرْعَانَ مَا أَتَمَّ دِرَاسَتَهُ الجَامِعِيَّةَ، وَحَصَلَ عَلَى الشَّهَادَةِ، وَبَدَأَ بِمُزَاوَلَةِ مِهْنَةِ الطِّبِّ.

وَلَكِنْ بَعْدَ مُرُوْرِ فَتْرَةٍ عَلَى مُزَاوَلَةِ المِهْنَةِ، أَحَسَّ (دونانت) بِعَدَمِ الرِّضَا عَنْ مِهْنَتِهِ الَّتِي كَانَ يُمَارِسُهَا فِي (جنيف) بِـ(سويسرا)، فَقَرَّرَ أَنْ يُغَادِرَ تِلْكَ المَدِيْنَةَ الغَنِيَّةَ، وَأَنْ يَتَّجِهَ إِلَى الأَمَاكِنِ الَّتِي يَحْتَاجُهُ النَّاسُ فِيْهَا أَكْثَرَ، فَوَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَى الدَّوْلَةِ المُجَاوِرَةِ لِبِلَادِهِ أَلَا وَهِيَ (إيطاليا)، فَاسْتَقَرَّ فِي مَدِيْنَةِ (سولفيرينو) الإِيْطَالِيَّةِ.



كَانَ إِيْقَاعُ الحَيَاةِ مُخْتَلِفاً فِي تِلْكَ المَدِيْنَةِ، فَقَدْ كَانَتِ القَذَارَةُ تَمْلأُ أَرْجَاءَهَا وَشَوَارِعَهَا، وَالفَقْرُ يُخَيِّمُ عَلَى مُعْظَمِ البُيُوْتِ فِيْهَا، فَاخْتَارَ (دونانت) أَحَدَ الأَحْيَاءِ الفَقِيْرَةِ المُكْتَظَّةِ بِالسُّكَّانِ فِي تِلْكَ المَدِيْنَةِ القَذِرَةِ، الَّتِي كَانَتْ فِيْهَا حَاوِيَاتُ القُمَامَةِ مُتْرَعَةً حَتَّى آخِرِهَا، وَالأَمْرَاضُ فِيْهَا مُنْتَشِرَةٌ كَالنَّارِ فِي الهَشِيْمِ.

لَمْ يَكُنْ لَدَى (دونانت) وَقْتٌ طَوِيْلٌ لِيَجْلِسَ وَيُفَكِّرَ فِي تِلْكَ الأُمُوْرِ؛ لأَنَّهُ بَدَأَ يَعْمَلُ مُدَّةً تَتَرَاوَحُ بَيْنَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً يَوْمِيّاً، وَذَلِكَ لِتَدَفُّقِ المَرْضَى عَلَيْهِ بِأَعْدَادٍ هَائِلَةٍ، كَمَا كَانَ يَسْعَى طِيْلَةَ الوَقْتِ لِلتَّوَاصُلِ مَعَ السُّلْطَاتِ المَحَلِّيَّةِ فِي تِلْكَ البِلَادِ عَلَى أَمَلِ أَنْ تَزِيْدَ اهْتِمَامَهَا وَعِنَايَتَهَا بِصِحَّةِ المُوَاطِنِيْنَ أَكْثَرَ، فَبَدَأَ النَّاسُ يُلاحِظُوْنَ الجُهْدَ الكَبِيْرَ الَّذِي يَبْذُلُهُ ذَلِكَ الطَّبِيْبُ، وَاهْتِمَامَهُ العَظِيْمَ بِهِمْ.

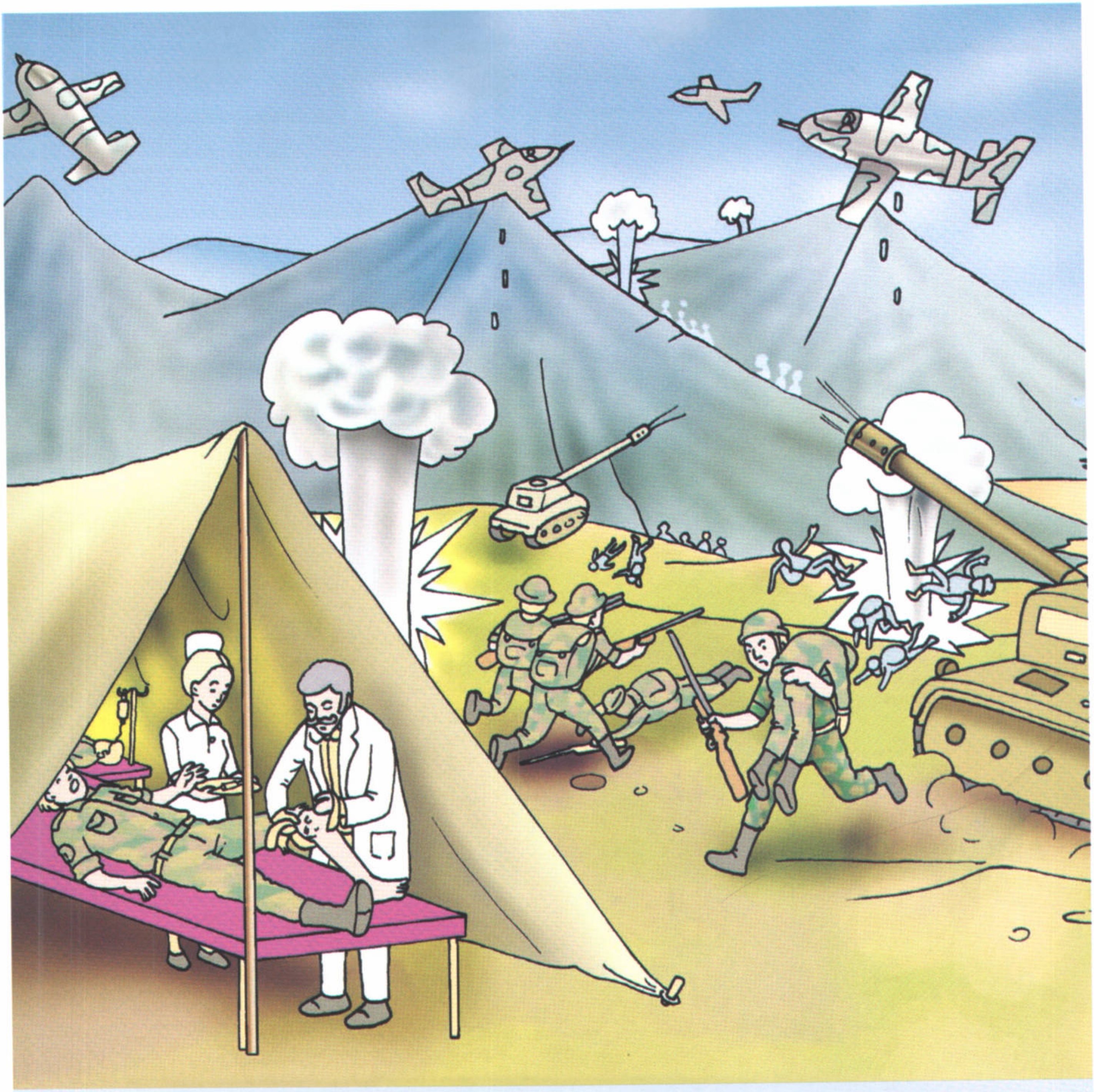
فِي تِلْكَ الفَتْرَةِ قَرَّرَ (نابليون الثَّالِثُ) مَلِكُ (فَرَنْسَا) غَزْوَ (إِيْطَالِيَا)، فَجَرَّتِ الحَرْبُ الوَيْلَاتِ وَالكَثِيْرَ مِنَ المُعَانَاةِ لِلشَّعْبِ، حَيْثُ كَانَ الجَرْحَى مُنْتَشِرِيْنَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ سَاحَةِ المَعْرَكَةِ، وَهَذَا مَا دَفَعَ (دونانت) لِلْعَمَلِ لَيْلَ نَهَارَ بِلَا تَعَبٍ أَوْ كَلَلٍ، إِذْ كَانَ يَدْخُلُ سَاحَةَ المَعْرَكَةِ لِمُسَاعَدَةِ الجَرْحَى دُوْنَ أَنْ يَهْتَزَّ لَهُ جَفْنٌ خَوْفاً مِنْ أَيِّ عَوَاقِبَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَرَتَّبَ عَلَى تِلْكَ المُخَاطَرَةِ، كَمَا لَمْ يَكُنْ يَخْشَى مِنْ خَطَرِ الإِصَابَةِ، أَوِ المَوْتِ، أَوِ التَّعَرُّضِ لِلأَمْرَاضِ وَالأَوْبِئَةِ؛ لأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ يَشْغَلُ تَفْكِيْرَهُ هُوَ الجَرْحَى الَّذِيْنَ هُمْ عَلَى شَفِيْرِ المَوْتِ، إِلَّا أَنَّ أَعْدَادَ الجَرْحَى كَانَتْ تَتَزَايَدُ، وَلَمْ يَكُنْ بِاسْتِطَاعَةِ فَرِيْقِهِ المُسَاعِدِ تَحَمُّلُ كُلِّ تِلْكَ الضُّغُوْطِ، وَهَكَذَا انْتَشَرَ مِئَاتٌ مِنَ الجُنُوْدِ الجَرْحَى فِي سَاحَةِ القِتَالِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الحَرْبِ.

وَمَعَ إِشْرَاقَةِ الفَجْرِ كَشَفَ نُوْرُ الشَّمْسِ عَنْ حَجْمِ الدَّمَارِ الَّذِي خَلَّفَتْهُ المَعْرَكَةُ، حَيْثُ تَهَدَّمَتْ بُيُوْتٌ كَثِيْرَةٌ، فَكَانَ مِنَ المُؤْلِمِ أَنْ تَرَى النَّاسَ وَهُمْ يَبْحَثُوْنَ فِي الرُّكَامِ عَنْ بَقَايَا أَشْلَاءِ أَحِبَّتِهِمْ أَوْ مُمْتَلَكَاتِهِمْ، كَمَا أَخَذَ مِئَاتٌ مِنَ الأَطْفَالِ المَذْعُوْرِيْنَ يَتَجَوَّلُوْنَ وَهُمْ يَصِيْحُوْنَ وَيَبْكُوْنَ، بَيْنَمَا أَقْعَدَتِ الصَّدْمَةُ البَعْضَ مِمَّنْ جَلَسُوْا خَائِفِيْنَ مُتَمَسِّكِيْنَ بِأَحِبَّتِهِمُ الَّذِيْنَ فَقَدُوْهُمْ، فَانْكَبُّوْا عَلَى أَعْنَاقِهِمْ بُكَاءً وَتَقْبِيْلاً.

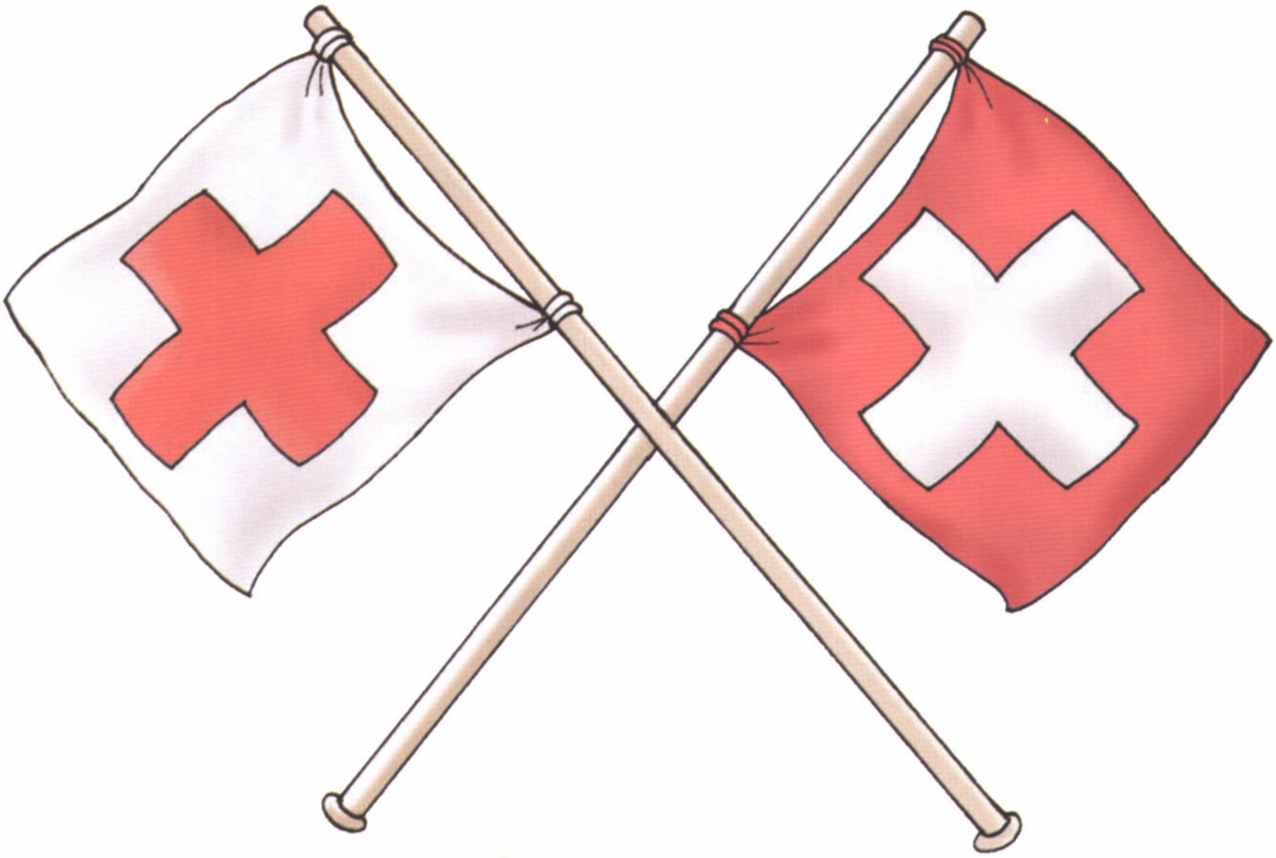
أَحَسَّ (دونانت) بِالمَسْؤُوْلِيَّةِ تُجَاهَ كُلِّ مَا يَجْرِي مِنْ حَوْلِهِ، وَشَعَرَ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهِ القِيَامَ بِشَيْءٍ مَا لِمُسَاعَدَةِ المَرْضَى الَّذِيْنَ أَشْرَفُوْا عَلَى الهَلَاكِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِوُسْعِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِمُفْرَدِهِ، لِذَا طَلَبَ مِنَ الأَطِبَّاءِ وَالمُمَرِّضِيْنَ أَنْ يَهُبُّوْا لِمُسَاعَدَتِهِ.

وَلَمْ يَكَلَّ (دونانت)، أَوْ يَمَلَّ، أَوْ يَيْأَسْ طِيْلَةَ تِلْكَ الفَتْرَةِ مِنْ مُحَاوَلَاتِهِ لِلَفْتِ نَظَرِ السُّلْطَاتِ المَحَلِّيَّةِ لِذَلِكَ المَوْضُوْعِ، وَلَقَدْ حَصَلَتْ قَضِيَّتُهُ عَلَى مَا يَكْفِيْهَا مِنَ الدَّعْمِ، وَلَاقَتْ أَصْدَاءً كَبِيْرَةً، وَذَلِكَ حِيْنَمَا أَخَذَتِ الصِّحَافَةُ تُسَلِّطُ الضَّوْءَ عَلَى مَا كَانَ (دونانت) يَفْعَلُهُ لِخِدْمَةِ النَّاسِ، وَسَرْعَانَ مَا تَبِعَتْهَا الصِّحَافَةُ الأُوْرُوْبِيَّةُ، الَّتِي أَخَذَتْ تَنْقُلُ مُعَانَاةَ النَّاسِ فِي مَدِيْنَةِ (سولفيرينو) بِالتَّفْصِيْلِ.

عِنْدَهَا لَمْ يَتَبَقَّ لِلسُّلْطَاتِ المَحَلِّيَّةِ أَيُّ عُذْرٍ فِي تَجَاهُلِ تِلْكَ المَدِيْنَةِ المَنْكُوْبَةِ، لِذَا افْتَتَحَ المَجْلِسُ البَلَدِيُّ المَشَافِيَ وَمَرَاكِزَ الإِغَاثَةِ وَالدَّعْمِ، إِضَافَةً إِلَى البَدْءِ بِحَمْلَةِ إِعْمَارٍ سَرِيْعَةٍ لِلْبُيُوْتِ المُتَضَرِّرَةِ، وَهَكَذَا عَادَتْ مَدِيْنَةُ (سولفيرينو) إِلَى وَضْعِهَا الطَّبِيْعِيِّ، وَنَسِيَ النَّاسُ وَيْلَاتِ تِلْكَ الحَرْبِ، إِلَّا أَنَّ (جان هنري دونانت) لَمْ يَنْسَ



ذَلِك، إذْ كَيْفَ لَهُ أَنْ يَنْسَى حَالَةَ الرُّعْبِ الَّتِي كَانَتْ تَسُودُ خِلَالَ المَعْرَكَةِ، وَمُعَانَاةَ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ؟ لِذَا قَرَّرَ أَنْ يَمْنَعَ تَكْرَارَ تِلْكَ المَأْسَاةِ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِمَسْؤُولِيَّتِهِ تُجَاهَ البَشَرِيَّةِ، وَهَذَا مَا دَفَعَهُ لِنَشْرِ رِسَالَتِهِ عَبْرَ كَلِمَةٍ مَكْتُوبَةٍ، حَيْثُ أَلَّفَ كُتَيِّباً وَصَفَ فِيْهِ وَيْلَاتِ الحَرْبِ الَّتِي جَرَتْ فِي مَدِيْنَةِ (سولفيرينو)، وَمُعَانَاةَ الجَرْحَى وَالمُشَرَّدِيْنَ وَالأَشْخَاصِ الَّذِيْنَ فُجِعُوْا بِأَعَزِّ النَّاسِ إِلَيْهِمْ، كَمَا دَعَا مِنْ خِلَالِهِ النَّاسَ لِتَشْكِيلِ جَمْعِيَّاتٍ تَخْتَصُّ بِالعِنَايَةِ بِالجَرْحَى، فَضْلاً عَنِ الجَمْعِيَّاتِ المُتَخَصِّصَةِ بِتَدْرِيْبِ المُتَطَوِّعِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْرِضُوْنَ خِدْمَاتِهِمْ وَقْتَ الشَّدَائِدِ، وَحِيْنَمَا تَسْتَدْعِي الحَاجَةُ.



وَأخِيْراً تمَكَّنَ (دونانت) مِنْ حَصْدِ ثَمرَةِ جُهْدِهِ المُضْنِي الَّذي بَذَلَهُ خِلالَ تِلْكَ السِّنِيْنَ، وَذلِكَ بَعْدَما ذاعَ صِيْتُ كِتابِهِ، وَأصْبَحَ الجَمِيْعُ يَتحَدَّثُ عَنْهُ، كَما طُلِبَ مِنْهُ أنْ يَعْرِضَ أفْكارَهُ وَآراءَهُ في أحَدِ الاجْتِماعاتِ العامَّةِ المُهِمَّةِ، فَكانَ لِخِطابِهِ تأثِيْرٌ كَبِيْرٌ في النَّاسِ، ما دَفَعَهُمْ إلى تَشْكِيْلِ جَمْعِيَّةٍ مُتَخَصِّصَةٍ بِالعِنايَةِ بِالجَرْحى انْضَمَّ إِلَيْها كَثِيْرُوْنَ، وَعُرِفَتْ تِلْكَ الجَمْعِيَّةُ فِيْما بَعْدُ بِاسْمِ: جَمْعِيَّةُ الصَّلِيْبِ الأحْمَرِ.

بَعْدَ ذلِكَ بَدأَتْ مَرْحَلَةُ إِرْسالِ المُنْتَسِبِيْنَ إِلَى جَمْعِيَّةِ الصَّلِيْبِ الأحْمَرِ إِلَى مُخْتَلِفِ البُلْدانِ بِهَدَفِ نَشْرِ رِسالَةِ تِلْكَ الجَمْعِيَّةِ القائِمَةِ عَلى العَمَلِ الخَيْرِيِّ، وَفي عامِ ١٨٦٣ عُقِدَ أوَّلُ اجْتِماعٍ دَوْلِيٍّ لِتِلْكَ الجَمْعِيَّةِ شارَكَتْ فِيْهِ سِتٌّ وَثَلاثُوْنَ دَوْلَةً، وَتَمَّ خِلالَهُ وَضْعُ المَبادِئِ الأساسِيَّةِ لِجَمْعِيَّةِ الصَّلِيْبِ الأحْمَرِ، وَالتَّوَصُّلُ إِلَى تَوافُقٍ بِشأْنِ الرَّمْزِ المُسْتَخْدَمِ لِلدِّلالَةِ عَلى تِلْكَ الجَمْعِيَّةِ، حَيْثُ كانَ ذلِكَ الرَّمْزُ يَشْتَمِلُ عَلى عَلَمٍ أبْيَضِ اللَّوْنِ يَحْتَوي صَلِيْباً أحْمَرَ، فَكانَ يُشْبِهُ عَلَمَ (سويسرا)، غَيْرَ أنَّ ألْوانَهُ كانَتْ بِعَكْسِ ألْوانِ العَلَمِ (السُّويسريِّ).

وَبَعْدَ تأسِيْسِ جَمْعِيَّةِ الصَّلِيْبِ الأحْمَرِ، حاوَلَ (دونانت) أنْ يَرْتَقِيَ بِتِلْكَ الجَمْعِيَّةِ لِتَقْتَرِبَ مِنَ الوَضْعِ المِثالِيِّ قَدْرَ الإمْكانِ، فَزارَ فُرُوْعَها المُخْتَلِفَةَ، وَتمَكَّنَ مِنْ خِلالِ خِطاباتِهِ المُؤَثِّرَةِ الَّتي ألْقاها أنْ يَزِيْدَ عَدَدَ المُتَطَوِّعِيْنَ في تِلْكَ المُنَظَّمَةِ، كَما تمَكَّنَ مِنْ جَمْعِ مَبالِغَ مالِيَّةٍ كَبِيْرَةٍ أُرْسِلَتْ تَبَرُّعاتٍ لِتِلْكَ الجَمْعِيَّةِ، وَهَكَذا انْضَمَّتْ جَمِيْعُ دُوَلِ العالَمِ لِتِلْكَ المُنَظَّمَةِ مَعَ بِدايَةِ القَرْنِ العِشْرِيْنَ.

وَلَقَدْ عاشَ (جان هنري دونانت) حَتَّى بَلَغَ الثَّانِيَةَ وَالثَّمانِيْنَ مِنَ العُمْرِ، إِلَّا أنَّهُ قَضَى نِصْفَ قَرْنٍ مِنْ عُمْرِهِ في تَقْدِيْمِ الرِّعايَةِ لِلنَّاسِ الَّذِيْنَ شَعَرَ بِمَسْؤُوْلِيَّتِهِ تُجاهَهُمْ.

البَحْثُ عَنِ الثَّرْوَةِ

كَانَ وَالِدُ (فُؤادٍ) تاجِراً ثَرِيّاً هَمُّهُ الوَحِيْدُ جَمْعُ المالِ وَالثَّرْوَةِ أَكْثَر فَأَكْثَر، وَذلِكَ عبْرَ تَوْظِيْفِ أَمْوالِهِ وَاسْتِثْمارِها بِهَدَفِ الحُصُوْلِ عَلى المَزِيْدِ مِنَ المالِ.

وَأَرادَ ذَلِكَ التَّاجِرُ لِابْنِهِ أَنْ يُصْبِحَ مِثْلَهُ، وَأَنْ يَسْتَخْدِمَ ذَكاءَهُ فِي تَحْصِيْلِ الثَّرْوَةِ، وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ عَبَّرَ عَنْ رَغْبَتِهِ تِلْكَ لِابْنِهِ، فَقالَ لَهُ:

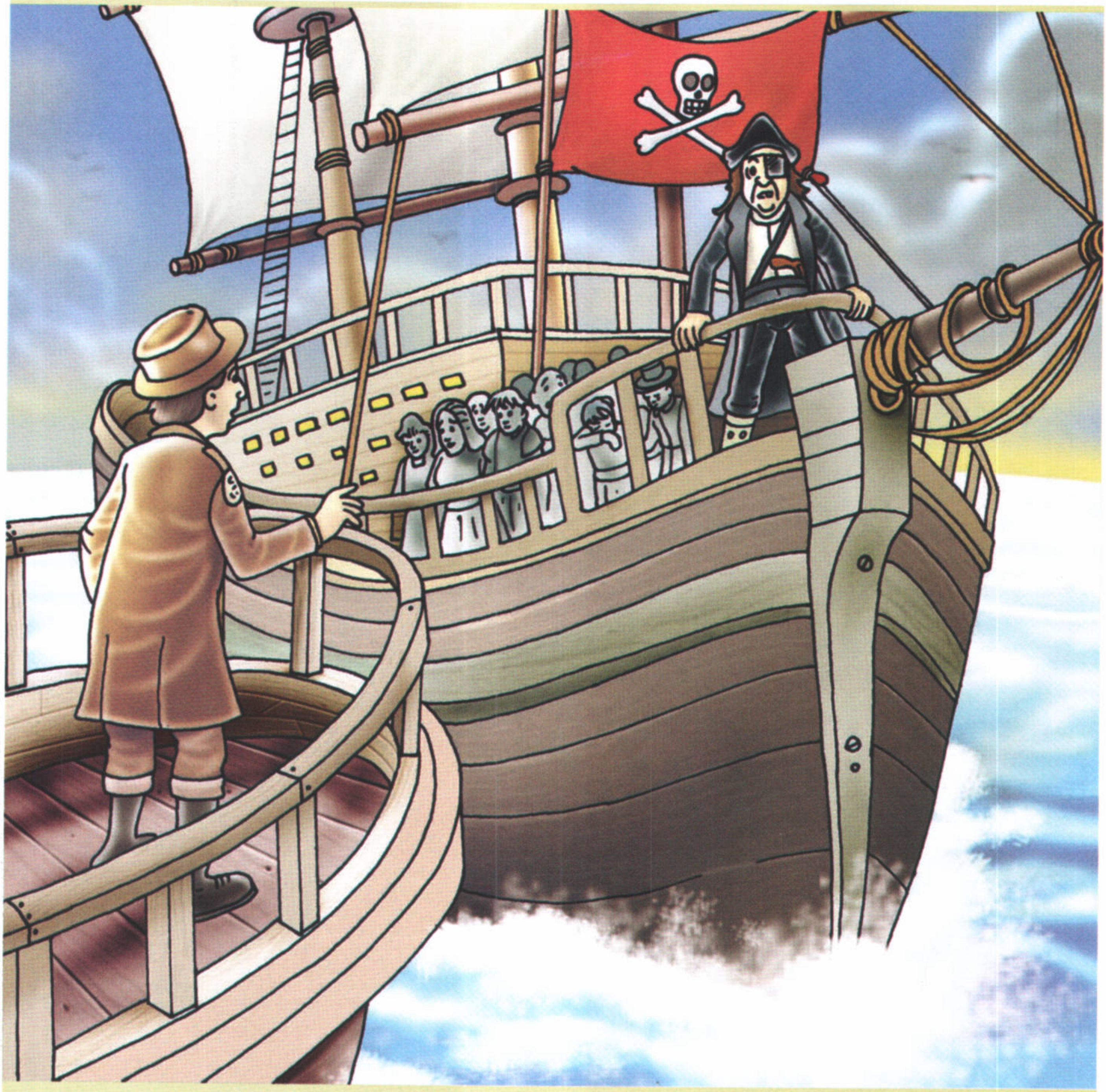
"سَأُعْطِيْكَ يا بُنَيَّ سَفِيْنَةً كَبِيْرَةً فِيْها شِحْنَةٌ ضَخْمَةٌ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَقْطَعَ البِحارَ السَّبْعَةَ، وَأَنْ تُتاجِرَ بِتِلْكَ البِضاعَةِ بِحِكْمَةٍ إِلَى أَنْ تُصْبِحَ رَجُلاً ثَرِيّاً".

رَدَّ عَلَيْهِ الابْنُ الَّذِي بَدَتْ عَلَيْهِ أَماراتُ السُّرُوْرِ: "أَشْكُرُكَ يا أَبتِ، لا تَقْلَقْ عَلَيَّ سَأُتاجِرُ بِتِلْكَ البِضاعَةِ بِمَهارَةٍ، وَسَأَعُوْدُ إِلَيْكَ ثَرِيّاً".

وَمِنْ يَوْمِها انْطَلَقَ (فُؤادٌ) فِي رِحْلَةِ البَحْثِ عَنِ الثَّرْوَةِ، وَلَقَدْ كانَ شُعُوْرُهُ لا يُوْصَفُ وَهُوَ يَحْلُمُ بِالثَّرْواتِ وَالأَمْوالِ الَّتِي يَسْعَى لِتَحْصِيْلِها.

بَقِيَ (فُؤادٌ) يَجُوْبُ البِحارَ بِضْعَةَ أَيَّامٍ قَبْلَ أَنْ يَرَى سَفِيْنَةً تُبْحِرُ نَحْوَهُ، وَلَمَّا مَرَّتْ قُرْبِياً مِنْ سَفِيْنَتِهِ سَمِعَ (فُؤادٌ) مِنْ تِلْكَ السَّفِيْنَةِ صَوْتَ بُكاءٍ وَعَوِيْلٍ، فَعَلِمَ أَنَّ بَعْضَ القَراصِنَةِ قَدِ اسْتَوْلَوْا عَلَى تِلْكَ السَّفِيْنَةِ.

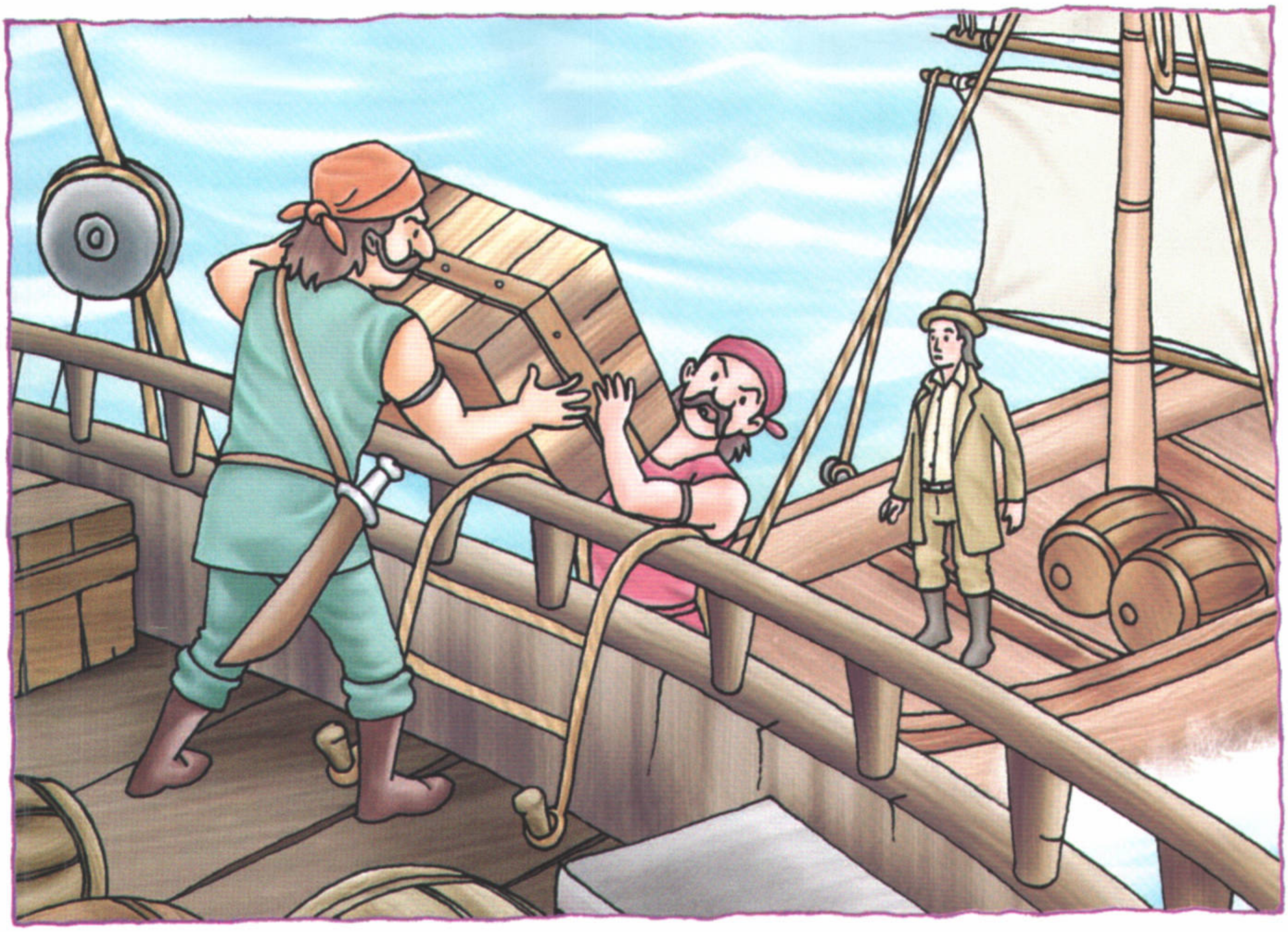




فَنظَرَ إِلَى رِجالِهِ وَقالَ: "أَحْمَدُ اللهَ أَنَّهُمْ لَمْ يُهَاجِمُوْا سَفِيْنَتَنا، فَالمُهِمُّ أَنْ نَظَلَّ سالِمِيْنَ آمِنِيْنَ عَلَى أَنْفُسِنا وَبِضَاعَتِنا".

بَيْدَ أَنَّ صَوْتَ البُكَاءِ ظَلَّ فِي أُذُنِ (فُؤَادٍ) الَّذِي لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ تَجاهُلِهِ أَوْ نِسْيَانِهِ، فَأَمَرَ رِجالَهُ أَنْ يَتْبَعُوْا تِلْكَ السَّفِيْنَةَ، فَقالَ: "أَدْرِكُوْا تِلْكَ السَّفِيْنَةَ!"، وَحِيْنَما وَصَلَ رِجالُهُ إِلَيْهَا أَخَذَ (فُؤَادٌ) يُنادِي عَلَى قُبْطانِها بِشَجاعَةٍ قَائِلاً: "مَا كُلُّ هَذَا النَّحِيْبِ وَالعَوِيْلِ الصَّادِرِ مِنْ سَفِيْنَتِكَ؟"

فَأَتَاهُ صَوْتُ القُبْطَانِ هَادِراً: "هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ، اِبْتَعِدْ مِنْ هُنَا قَبْلَ أَنْ أَقْبِضَ عَلَيْكَ كَهَؤُلَاءِ، وَأَبِيْعَكَ فِي سُوْقِ النِّخَاسَةِ مَعَهُمْ".



وَلكِنْ (فُؤاداً) لَمْ يَعْبأْ بِقَوْلِهِ أَبداً، وَصرخَ بِالقُبطَانِ قائِلاً: "مَاذا تُرِيْدُ مُقابِلَ هؤُلاءِ الأَسْرَى الَّذِيْنَ اِخْتَطَفْتَهُمْ؟ فَأَنا عَلَى اِسْتِعْدادٍ لِافْتِدائِهِمْ بِما تُرِيْدُ".

فَأَتاهُ صَوْتُ القُبْطَانِ الأَجَشُّ وَهُوَ يَضْحَكُ سَاخِراً: "أُرِيْدُ كُلَّ البِضاعَةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا فِي سَفِيْنَتِكَ"، وَذلِكَ لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ (فُؤاداً) يَسْخَرُ مِنْهُ.

إِلَّا أَنَّ (فُؤاداً) لَمْ يَكُنْ يَسْتَهْزِئُ بِهِ أَبداً، فَكُلُّ ما كَانَ يَشْغَلُ تَفْكِيْرَهُ وَقْتَها هُوَ صَوْتُ بُكاءِ الأَسْرَى وَعَوِيْلُهُمْ، أَمَّا الثَّرْوَةُ وَالمَالُ فَلَمْ تَكُنْ تَخْطُرْ لَهُ بِبالٍ.

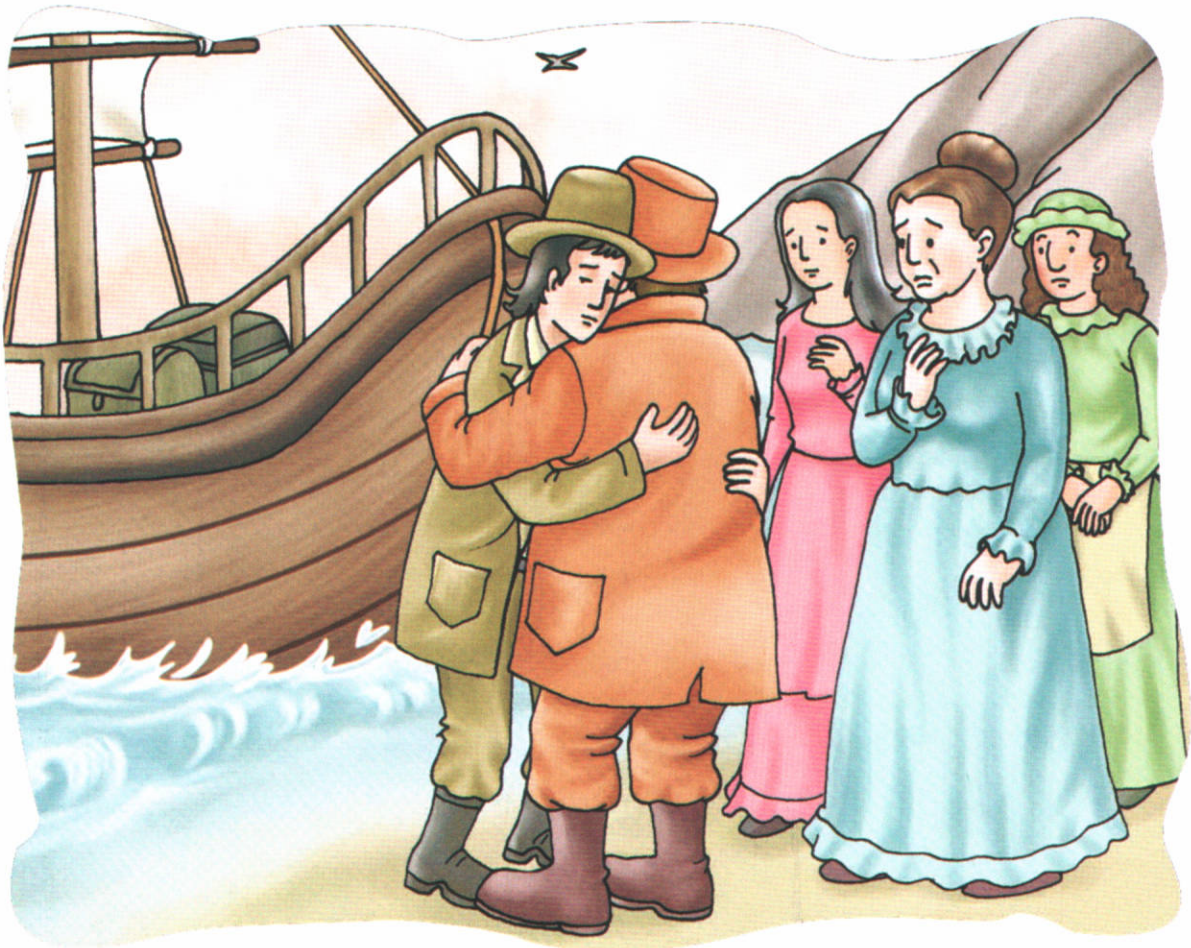
وَهذا ما جَعَلَ (فُؤاداً) يُخاطِبُ القُبْطَانَ قائِلاً: "لَقَدْ وافَقْتُ عَلَى طَلَبِكَ، فَخُذِ البِضاعَةَ وَأَعْطِنِي الأَسْرَى".

غَيْرَ أَنَّ القُبْطَانَ لَمْ يُصدِّقْ ما سَمِعَهُ، فَأَخَذَ يَلْهَثُ مِنْ شِدَّةِ جَشَعِهِ حِيْنَما رَأَى (فُؤاداً) وَهُوَ يُنْزِلُ البِضاعَةَ وَيَنْقُلُهَا فِي قَوارِبَ صَغِيْرَةٍ إِلَى سَفِيْنَتِهِ، وَمِنْ حُسْنِ حَظِّ (فُؤادٍ) أَنْ حَرَّرَ ذلِكَ القُبْطَانُ الأَسْرَى، وَأَرْسَلَهُمْ فِي القَوارِبِ الَّتِي أَرْسَلَهَا (فُؤادٌ) إِلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ هؤُلاءِ الأَسْرَى مُقَيَّدِيْنَ بِسَلاسِلَ ثَقِيْلَةٍ، كَما كَانَ الجُوْعُ قَدْ أَرْهَقَهُمْ، وَتَمَلَّكَ الخَوْفُ وَالهَلَعُ قُلُوْبَهُمْ، فَما كَانَ مِنْ (فُؤادٍ) إِلَّا أَنْ أَطْلَقَ سَراحَهُمْ جَمِيْعاً.

وَلَكِنْ بَدا عَلَى أَسِيْرَتَيْنِ وَهُما اِمْرَأَةٌ عَجُوزٌ وَشابَّةٌ أَنَّهُما لَمْ تَكُوْنا تَرْغَبانِ فِي الحُصُوْلِ عَلَى حُرِّيَّتِهِما.

وَذلِكَ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا كَانَتْ تَخْشَى أَلَّا تَتَمَكَّنَ مِنَ العَوْدَةِ إِلَى دِيَارِهَا بَعْدَ حُصُوْلِهَا عَلَى حُرِّيَّتِهَا.
وَهُنَا شَعَرَ (فُؤَادٌ) بِالمَسْؤُوْلِيَّةِ تُجَاهَ هَاتَيْنِ المَرْأَتَيْنِ، فَقَرَّرَ أَنْ يَصْطَحِبَهُمَا مَعَهُ إِلَى بَيْتِهِ، وَخِلَالَ رِحْلَةِ العَوْدَةِ أُغْرِمَ (فُؤَادٌ) بِـ(هَالَةَ) تِلْكَ الشَّابَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَخْشَى أَنْ تَنَالَ حُرِّيَّتَهَا، وَحِيْنَمَا وَصَلَتِ السَّفِيْنَةُ إِلَى بَرِّ الأَمَانِ عَقَدَ (فُؤَادٌ) قِرَانَهُ عَلَيْهَا وَتَزَوَّجَهَا، رَغْمَ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُرَحِّبْ بِعَوْدَةِ (فُؤَادٍ) إِلَى الوَطَنِ، الَّذِي مَا إِنْ وَصَلَ إِلَى بِلَادِهِ، وَلَقِيَ أَبَاهُ، وَأَخْبَرَهُ بِقِصَّتِهِ حَتَّى صَرَخَ فِيْهِ وَالِدُهُ مُتَجَهِّماً: "يَا لَكَ مِنْ أَحْمَقَ! لَقَدِ اسْتَبْدَلْتَ بِبِضَاعَتِكَ الثَّمِيْنَةِ هَؤُلَاءِ العَبِيْدَ الوَضِيْعِيْنَ، وَأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّكَ تَزَوَّجْتَ هَذِهِ الفَتَاةَ لِيُصْبِحَ لَدَيَّ شَخْصٌ آخَرُ أُعِيْلُهُ مَعَكَ، اُخْرُجْ مِنْ هَذَا البَيْتِ وَلَا تَعُدْ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى".
وَهَذَا مَا انْتَهَى إِلَيْهِ حَالُ (فُؤَادٍ) المِسْكِيْنُ، إِذْ لَمْ يُقَدِّرْ وَالِدُهُ -وَيَا لَلأَسَفِ- إِحْسَاسَهُ بِالمَسْؤُوْلِيَّةِ تُجَاهَ أُوْلَئِكَ الأَسْرَى، لِذَا غَادَرَ (فُؤَادٌ) مَنْزِلَ أَبِيْهِ وَمَعَهُ زَوْجُهُ وَمُرَبِّيَتُهُ لِيَعِيْشُوْا مَعاً حَيَاةَ الفَقْرِ وَالفَاقَةِ، إِلَّا أَنَّ الحُبَّ الَّذِي كَانَ يُخَيِّمُ عَلَى ثَلَاثَتِهِمْ أَنْسَاهُمْ وَضْعَهُمْ وَجَعَلَهُمْ يَشْعُرُوْنَ بِسَعَادَةٍ مَا بَعْدَهَا سَعَادَةٌ، غَيْرَ أَنَّهُ كَثِيْراً مَا كَانَتْ تَنْتَابُ (فُؤَاداً) حَالَاتٌ مِنَ الحُزْنِ وَالكَآبَةِ كُلَّمَا تَذَكَّرَ مَا فَعَلَهُ بِهِ وَالِدُهُ، وَكُلَّمَا تَذَكَّرَ غَضَبَهُ عَلَيْهِ.
إِلَّا أَنَّ غَضَبَ أَبِيْهِ لَمْ يَدُمْ وَقْتاً طَوِيْلاً، فَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ أَرْسَلَ الأَبُ إِلَى ابْنِهِ رِسَالَةً قَالَ لَهُ فِيْهَا: "أَيْ بُنَيَّ!





أَعْرِفُ أَنِّي قَدْ قَسَوْتُ عَلَيْكَ، لكِنَّنِي كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنِي إِنْ جَعَلْتُكَ تَعِيْشُ حَيَاةَ الفَقْرِ وَالحَاجَةِ فَسَوْفَ تَعْرِفُ قِيْمَةَ المَالِ، وَإِخَالُكَ قَدْ فَهِمْتَ الدَّرْسَ وَوَعَيْتَهُ تَمَاماً الآنَ، لِذَا قَرَّرْتُ أَنْ أَهَبَ لَكَ سَفِيْنَةً أُخْرَى مُحَمَّلَةً بِالبِضَاعَةِ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَعُوْدَ هَذِهِ المَرَّةَ غَنِيّاً كَمَا وَعَدْتَنِي فِي المَرَّةِ السَّابِقَةِ".

عِنْدَهَا هُرِعَ (فُؤَادٌ) إِلَى دَارِ أَبِيْهِ، وَحِيْنَمَا رَآهُ احْتَضَنَهُ وَدُمُوْعُ الفَرَحِ تَمْلأُ عَيْنَيْهِ، إِذْ لَمْ يُصَدِّقْ أَنْ تَعُوْدَ عَلاقَتُهُ بِأَبِيْهِ كَسَابِقِ عَهْدِهَا، رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى يَقِيْنٍ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَقْتَرِفْ إِثْماً حِيْنَمَا دَفَعَ بِضَاعَتَهُ ثَمَناً لِتَحْرِيْرِ الأَسْرَى.

وَفِي اليَوْمِ التَّالِي أَبْحَرَ (فُؤَادٌ) مَرَّةً أُخْرَى بَحْثاً عَنِ الثَّرْوَةِ، وَتَرَكَ زَوْجَهُ (هَالَةَ) وَمُرَبِّيَتَهُ فِي بَيْتِ وَالِدِهِ.

وَبَعْدَمَا قَطَعَ شَوْطاً طَوِيْلاً فِي الإِبْحَارِ عَلَى مَدَى أَيَّامٍ عَدِيْدَةٍ وَصَلَ (فُؤَادٌ) بِسَفِيْنَتِهِ إِلَى أَحَدِ المَرَافِئِ، وَأَخَذَ يَبْحَثُ هُنَاكَ عَنْ تَاجِرٍ يَعْرِفُهُ، وَأَرَادَ أَنْ يَعْقِدَ مَعَهُ صَفْقَةً.

وَأَثْنَاءَ مُضِيِّهِ لِمُلاقَاةِ ذَلِكَ التَّاجِرِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُرَّ مِنْ أَحَدِ الأَسْوَاقِ، فَصَادَفَ عِنْدَ مُرُوْرِهِ فِي ذَلِكَ السُّوْقِ

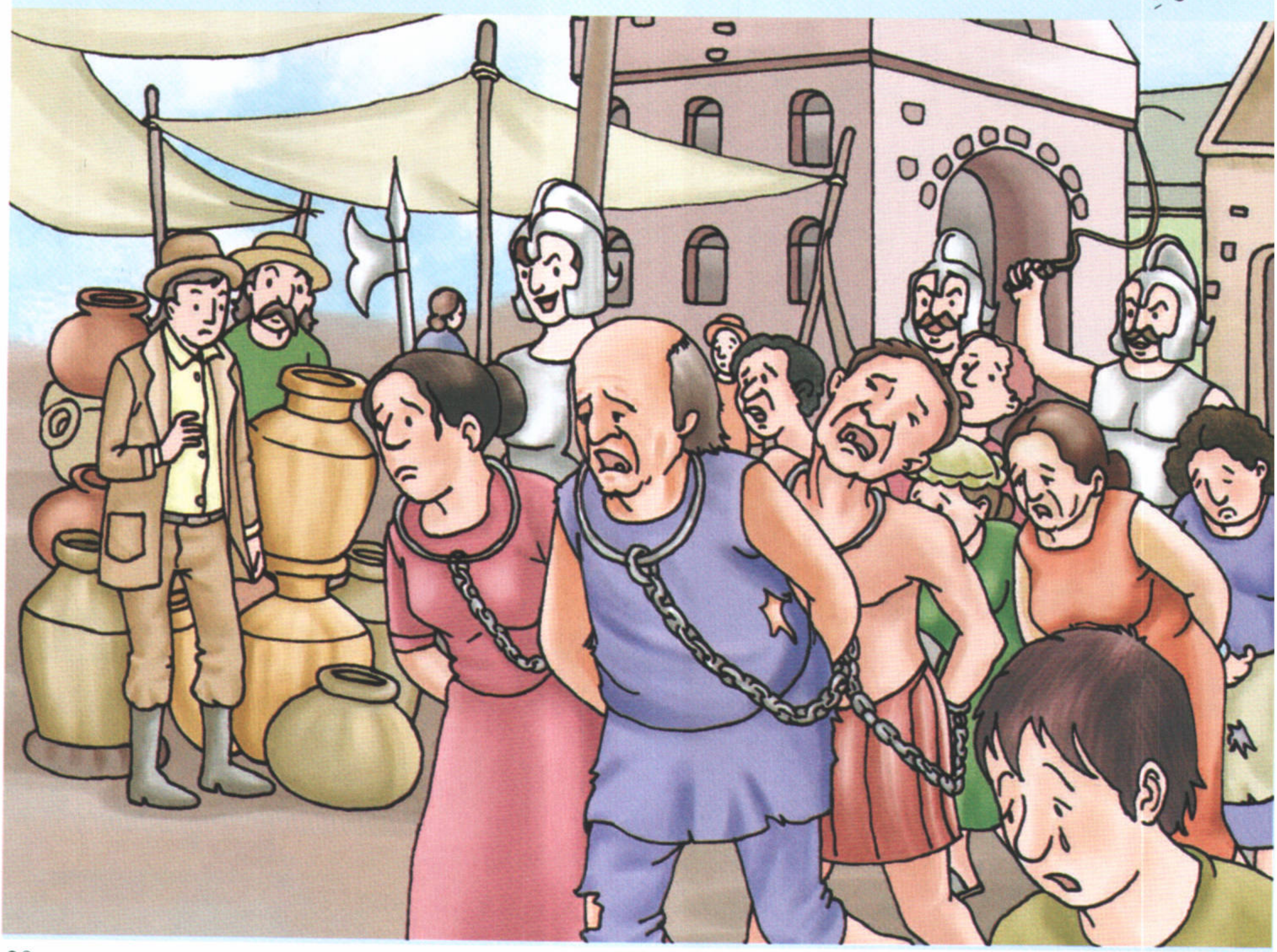
مَوْكِباً يَضُمُّ سُجَنَاءَ كَانَ الجُنُوْدُ يَجْلِدُوْنَهُم بِالسِّيَاطِ، وَيَسُوْقُوْنَهُم كَالقَطِيْعِ، وَقَدْ بَدَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الجُنُوْدَ كَانُوْا يَسْتَمْتِعُوْنَ بِحَفْلَةِ التَّعْذِيْبِ تِلْكَ، فَمَا كَانَ مِنْ (فُؤَادٍ) لِشِدَّةِ تَأَثُّرِهِ -لَاسِيَّمَا حِيْنَمَا رَأَى عَجُوْزاً يُعَذَّبُ بَيْنَ السُّجَنَاءِ- إِلَّا أَنْ سَأَلَ الجُنُوْدَ: "إِلَى أَيْنَ تَقْتَادُوْنَ هَؤُلَاءِ السُّجَنَاءَ؟"

فَأَجَابَهُ أَحَدُ الجُنُوْدِ وَهُوَ يُقَهْقِهُ بِازْدِرَاءٍ: "إِلَى أَيْنَ؟ إِلَى الزَّنَازِيْنِ، وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّنَا نَأْخُذُهُم فِي نُزْهَةٍ".

فَسَأَلَهُ (فُؤَادٌ): "وَلِمَاذَا؟"

فَقَالَ: "لِأَنَّهُم لَمْ يَدْفَعُوْا مَا عَلَيْهِم مِنْ ضَرَائِبَ".

عِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ (فُؤَادٌ) كَمْ غَضِبَ أَبُوْهُ عَلَيْهِ حِيْنَمَا أَعْطَى بِضَاعَتَهُ لِلْقَرَاصِنَةِ مُقَابِلَ تَحْرِيْرِ مَجْمُوْعَةٍ صَغِيْرَةٍ مِنَ الأَسْرَى، فَحَاوَلَ جَاهِداً أَلَّا يَشْعُرَ بِالأَسَى تُجَاهَ هَؤُلَاءِ السُّجَنَاءِ أَيْضاً؛ لِأَنَّ وَالِدَهُ لَنْ يَغْفِرَ لَهُ هَذِهِ المَرَّةَ، إِلَّا أَنَّ طَبِيْعَةَ (فُؤَادٍ) وَخُلُقَهُ لَمْ يَسْمَحَا لَهُ بِأَنْ يُدِيْرَ ظَهْرَهُ لِهَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ، فَذَهَبَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى كَبِيْرِ القُضَاةِ فِي تِلْكَ المَدِيْنَةِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ اقْتِرَاحاً، فَقَالَ لَهُ: "أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ يَا سَيِّدِي أَنْ تَأْخُذَ كَامِلَ بِضَاعَتِي مُقَابِلَ تَحْرِيْرِ هَؤُلَاءِ السُّجَنَاءِ"، فَوَافَقَ القَاضِي عَلَى ذَلِكَ، رَغْمَ أَنَّهُ أَخَذَ يَنْظُرُ إِلَى (فُؤَادٍ) عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيْبُ الأَطْوَارِ.





وَلَقَدْ شَعَرَ السُّجَناءُ بِعَظِيمِ الامْتِنانِ تُجاهَ (فُؤادٍ) فَانْكَبُّوْا عَلى قَدَمَيْهِ، وَأَخَذُوْا يَشْكُرُوْنَهُ عَلى صَنِيْعِهِ، ثُمَّ عادَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَى أُسْرَتِهِ وَقَرْيَتِهِ وَالسَّعادَةُ تَمْلأُ جَوانِحَهُ.

بَعْدَ ذَلِكَ التَّصَرُّفِ أَصْبَحَ (فُؤادٌ) مُتَأَكِّداً مِنْ أَنَّ وَالِدَهُ لَنْ يُسامِحَهُ عَلى صَنِيْعِهِ هَذِهِ المَرَّةَ؛ لِأَنَّهُ لَنْ يَرى فِيْهِ سِوى شَخْصٍ أَخْرَقَ لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنْ أَخْطائِهِ السَّابِقَةِ، وَحَدَثَ ما تَوَقَّعَهُ (فُؤادٌ)، إِذْ كانَ غَضَبُ أَبِيْهِ عَلَيْهِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ هَذِهِ المَرَّةَ، وَانْتَهى الأَمْرُ بِمُعاقَبَةِ (فُؤادٍ) بِطَرْدِهِ مِنَ البَيْتِ مَعَ زَوْجِهِ وَمُرَبِّيَتِهِ.

وَبَعْدَ فَتْرَةِ انْقِطاعٍ بَيْنَ الأَبِ وَابْنِهِ، شَعَرَ الأَبُ مَرَّةً أُخْرى بِالشَّفَقَةِ عَلى ابْنِهِ، فَمَنَحَهُ فُرْصَةً أُخْرى، لَكِنَّهُ حَذَّرَهُ مِنْ أَنَّها فُرْصَتُهُ الأَخِيْرَةُ، وَبِناءً عَلى ذَلِكَ أَبْحَرَ (فُؤادٌ) وَكُلُّهُ عَزْمٌ وَتَصْمِيْمٌ عَلى جَمْعِ ثَرْوَةٍ طائِلَةٍ.

وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَنْطَلِقَ (فُؤادٌ) في رِحْلَتِهِ هَذِهِ المَرَّةَ عَلَّقَ صُوْرَةً كَبِيْرَةً لِزَوْجِهِ (هالَةَ) عِنْدَ مُقَدِّمَةِ السَّفِيْنَةِ، ثُمَّ أَبْحَرَ، وَأَمْضى في البَحْرِ أَشْهُراً طَوِيْلَةً، إِلَى أَنْ قَرَّرَ التَّوَقُّفَ أَخِيْراً عِنْدَ مَدِيْنَةٍ كَبِيْرَةٍ يَحْكُمُها مَلِكٌ عَظِيْمٌ، وَحِيْنَما رَأى سُكَّانُ تِلْكَ المَدِيْنَةِ صُوْرَةَ (هالَةَ) أُعْجِبُوْا بِجَمالِها أَشَدَّ الإِعْجابِ، كَما رَأَى المَلِكُ صُوْرَتَها مُصادَفَةً، فَسَأَلَ (فُؤاداً): "لِماذا وَضَعْتَ هَذِهِ الصُّوْرَةَ في سَفِيْنَتِكَ؟"

أَجابَهُ (فُؤادٌ) بِكُلِّ أَدَبٍ وَاحْتِرامٍ: "إِنَّها صُوْرَةُ زَوْجِي يا مَوْلايَ".

عِنْدَها صَرَخَ المَلِكُ: "زَوْجُكَ! إِنَّها ابْنَتِي الَّتِي ضاعَتْ مِنِّي مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيْدٍ، بَعْدَما خُطِفَتْ، وَحُرِمْتُ مِنْها طِيْلَةَ تِلْكَ السِّنِيْنَ"، ثُمَّ اتَّجَهَ نَحْوَ (فُؤادٍ)، وَأَخَذَ يُعانِقُهُ، وَيَشْكُرُ رَبَّهُ لِأَنَّهُ حَفِظَ لَهُ ابْنَتَهُ وَحَماها، بَعْدَ ذَلِكَ أَخَذَ مَعَهُ (فُؤاداً) إِلَى قَصْرِهِ وَأَخْبَرَ المَلِكَةَ بِأَنَّ ابْنَتَهُما كانَتْ بِأَيْدٍ أَمِيْنَةٍ، وَقَدْ تَزَوَّجَتْ مِنْ (فُؤادٍ) الَّذِي جَعَلَهُ المَلِكُ وَرِيْثاً لِلْعَرْشِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَعَمَّتِ الأَفْراحُ وَالاحْتِفالاتُ البِلادَ، وَلَمْ يَكُنِ السَّبَبُ في ذَلِكَ عُثُوْرَ المَلِكِ عَلى ابْنَتِهِ الَّتِي ضاعَتْ مِنْهُ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيْلٍ فَحَسْبُ، بَلْ أَيْضاً لِزَواجِها مِنْ رَجُلٍ صالِحٍ يُحِسُّ بِالمَسْؤُوْلِيَّةِ تُجاهَ غَيْرِهِ، وَهَذا ما جَعَلَ مِنْ (فُؤادٍ) الوَرِيْثَ الأَنْسَبَ لِحُكْمِ البِلادِ بَعْدَ المَلِكِ.

بَعْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ المَلِكُ (فُؤاداً) إِلَى دِيارِهِ لِيُحْضِرَ ابْنَتَهُ (هالَةَ) وَمُرَبِّيَتَهُ وَوالِدَيْهِ، كَما حَمَّلَهُ بِالهَدايا لِأَبَوَيْهِ وَزَوْجِهِ.

وَهَكَذا نَجِدُ أَنَّ (فُؤاداً) صاحِبَ القَلْبِ الكَبِيْرِ قَدْ ضَحَّى بِبِضاعَتِهِ القَيِّمَةِ في كُلِّ مَرَّةٍ لِإِحْساسِهِ بِالمَسْؤُوْلِيَّةِ تُجاهَ غَيْرِهِ، وَلَمْ يُكَلِّفْ نَفْسَهُ عَناءَ البَحْثِ عَنِ الثَّرْوَةِ، لَكِنَّهُ قَرَّرَ بِشَجاعَةٍ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ كُلِّ ما يَمْلِكُ في سَبِيْلِ تَحْرِيْرِ السُّجَناءِ المَساكِيْنِ.



وَلَكِنْ ثَمَّةَ مَنْ يَقُوْلُ: الثَّرْوَةُ هِيَ الظَّهْرُ الَّذِي تَسْتَنِدُ عَلَيْهِ الشَّجَاعَةُ، وَهَذَا مَا حَصَلَ مَعَ (فُؤَادٍ)؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ إِحْسَاسَهُ بِالمَسْؤُوْلِيَّةِ جَعَلَهُ يَحْصُلُ عَلَى ثَرْوَةٍ أَكْبَرَ مِمَّا كَانَ يَحْلُمُ بِهِ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَرِيْثاً لِلْمَلِكِ، وَلَكِمْ هُوَ مَحْظُوْظٌ ذَلِكَ الشَّعْبُ الَّذِي يَحْكُمُهُ شَخْصٌ مِثْلُ (فُؤَادٍ)!.